حماس

فصول لم تكتب

تأليف

د. عزام سلطان التميمي

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

مماس

فصول لم تكتب

تأليف

د. عزام سلطان التميمي

ترجمة

أمل عيتاني

مراجعة الترجمة

براءة درزي رنا سعادة

مركز الزيتونة

للدراسات والاستشارات

بيروت - لبنان

Hamas: Unwritten Chapters

By:
Dr. Azzam Sultan Tamimi

تمّ ترجمة هذا الكتاب للعربية عن الأصل الإنجليزي المطبوع في سنة 2007، والصادر عن دار هيرست بلندن، مع بعض التعديل.

Azzam Tamimi, *Hamas: Unwritten Chapters*. London: C. Hurst & Co., 2007.

جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الأولى
2025م – 1446هـ
بيروت – لبنان

ISBN 978-614-494-058-7

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك التسجيل الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطّي من الناشر.

(الآراء الواردة في الكتاب لا تُعبّر بالضرورة عن وجهة نظر مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات)

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات
تلفون: 44 36 80 21 961 +
تلفاكس: 43 36 80 21 961 +
ص.ب.: 5034–14، بيروت – لبنان

بريد إلكتروني: info@alzaytouna.net **الموقع:** www.alzaytouna.net

يمكنكم التواصل معنا والاطلاع على صفحات المركز عبر الضغط على التطبيقات أدناه:

إخراج
ربيع معروف مراد

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات 3

المقدمة 5

الفصل الأول: البدايات 15

الفصل الثاني: من الدعوة إلى الجهاد 51

الفصل الثالث: حرب شاملة 73

الفصل الرابع: إلى الأردن 97

الفصل الخامس: محاولة اغتيال مشعل 131

الفصل السادس: الخروج من الأردن 157

الفصل السابع: أيديولوجية التحرير عند حركة حماس 191

الفصل الثامن: الجهاد والاستشهاد 223

الفصل التاسع: حماس ومنظمة التحرير الفلسطينية والسلطة الفلسطينية 243

الفصل العاشر: نحو انتفاضة ثالثة 271

فهرست 321

المقدمة

هذا الكتاب هو نسخة معربة، مع قليل من التعديل، عن الكتاب الذي صدر في لندن عن دار هيرست للنشر في 2007 بعنوان "Hamas: Unwritten Chapters" أي: "حماس: فصول لم تكتب".

حينما كُلّفت سنة 2003 بتأليف كتاب عن حركة المقاومة الإسلامية في فلسطين (حماس)، لم يكن ثمة ما يشير إلى أنه بعد أقل من ثلاثة أعوام ستحقق الحركة نصراً انتخابياً كاسحاً في واحدة من أكثر الممارسات الديموقراطية غرابة التي سُمح لها أن تتم في العالم العربي. وبغض النظر عن التطورات اللاحقة، فقد رأى العديد من المراقبين في ذلك الوقت أن حركة حماس، التي تأسست في كانون الأول/ ديسمبر من سنة 1987، أضحت لاعباً أساسياً في الساحة الفلسطينية. ومع توقف "عملية السلام" بين الفلسطينيين والإسرائيليين، أخذت حرب الاستنزاف البطيئة والمؤلمة بينهما، تُبرز بشكل متزايد دور حماس وتأثيره على السياسات المتعلقة بالشرق الأوسط على جميع المستويات، المحلية والإقليمية والعالمية.

وقد تجلى ذلك بوضوح إثر دخول عملية التسوية السياسية السلمية نفقاً مظلماً، وارتطام كافة الجهود المبذولة أمريكياً وأوروبياً وحتى عربياً بحائط "سياسة الأحادية" الإسرائيلية، التي بادر بانتهاجها رئيس الوزراء السابق أريل شارون Ariel Sharon، والذي شهدت سنوات حكمه حرب استنزاف شرسة بطيئة ومؤلمة، بين الطرفَين الفلسطيني والإسرائيلي قضت على كل بارقة أمل في التوصل إلى اتفاق بينهما سواء على نهج أوسلو أم على أساس من خريطة الطريق التي أجمع المراقبون للشأن الفلسطيني بأنها ولدت ميتة.

إذاً، أسهمت التطورات التي شهدتها الساحة الفلسطينية منذ تفجر الانتفاضة الثانية في أيلول/ سبتمبر 2000 في تسليط الضوء بشكل متزايد على حركة حماس، وعلى دورها في رسم ملامح المستقبل، وفي وضع السياسات المتعلقة بالشرق الأوسط على جميع المستويات المحلية والإقليمية والعالمية، الأمر الذي شجَّع دار "هيرست" البريطانية للنشر، وهي التي نشرت كتابي حول الإسلام والعلمانية في الشرق الأوسط

سنة 2000، على تكليفي بوضع كتاب باللغة الإنجليزية يحلل ظاهرة "حماس"، ويسرد قصة نشأتها ويسلط الضوء على مختلف مراحل تطورها.

ولذلك، بدا أن هناك حاجة إلى كتاب يتناول هذه الحركة المتنامية بسرعة ويتتبع مراحل تطورها. وعلى الرغم من صدور عدد من الكتب عن حركة حماس باللغة الإنجليزية، إلا أن معظم هذه الكتب، باستثناء الكتاب الذي ألّفه خالد الحروب بعنوان "حماس: الفكر السياسي والممارسة"،[1] يغلب عليها أنها تعبر عن وجهة نظر إسرائيلية، وتستقي معلوماتها من الأجهزة الاستخباراتية والأمنية؛ ولهذا كان من الضروري تزويد قرّاء الإنجليزية حول العالم برواية صادقة وموثّقة تعتمد على المصادر الأولية المتمثلة بأدبيات حركة حماس وتصريحات زعمائها ورواياتهم هم أنفسهم لمراحل نشأتها وتطورها، خلوصاً إلى تحليل علمي نزيه للعوامل والأحداث التي أدّت إلى صعود حركة حماس، وانتشار قاعدة نفوذها في زمن قياسي، واستئثارها بثقة ودعم أعداد متزايدة من الفلسطينيين في الداخل وفي الشتات، وفوزها باحترام وتقدير وتعاطف الغالبية العظمى من العرب والمسلمين حول العالم. لقد رغبت دار "هيرست" للنشر في إصدار كتاب أهم ما يتميز به أنه يتيح الفرصة، وللمرة الأولى، أمام قرّاء الإنجليزية الاطلاع على رؤية حركة حماس لنفسها وللعالم من حولها، وللتأمل في فهمها لجذور الصراع في فلسطين، والتعرف عن كثب حول ما تراه الحركة مقبولاً، وما لا يمكن أن تقبل به من وسائل حلّ النزاع، وهي أمور يندر أن تجد من يكتب عنها بنزاهة لقرّاء غير العربية.

من أبرز الأمثلة على الكيفية التي ما فتئت تقدم من خلالها حركة حماس للقرّاء الغربيين، ذلك الكتاب الذي ألّفه مؤخراً ماثيو ليفيت Matthew Levitt، الذي كان وقت نُشر كتابه سنة 2006 يشغل منصب نائب مساعد وزير المالية الأمريكي لشؤون الاستخبارات والتحليل. فكتابه الذي صدر بعنوان "حماس: السياسة والعمل الخيري والإرهاب في خدمة الجهاد Hamas: Politics, Charity, and Terrorism in the Service of Jihad"، يصوّر الحركة على أنها منظمة "إرهابية" تُسخّر أعمالها الخيرية وخدماتها التعليمية الواسعة في سبيل تحقيق هدف أساسي واحد، ألا وهو إلقاء "إسرائيل" في البحر. ولذلك يدين ليفيت أنشطة حماس الخيرية معتبراً إياها مجرد وسيلة غايتها تجنيد المزيد من الأفراد "لشن الحرب المقدسة" على "إسرائيل"،

ويُصور المساجد والمدارس ودور الأيتام ومؤسسات الرعاية الاجتماعية والأندية الرياضية التي تديرها الحركة على أنها مكونات "تنظيم إرهابي" ضخم يكمل بعضها بعضاً.[2] وأي وجهة نظر بشأن حماس تخالف الصورة النمطية هذه، يتم تجاهلها وتوصم بالتحيّز أو يُشكك في صحة المعلومات الواردة فيها. ولا أدل على ذلك مما لقيته المراجعة النقدية لكتاب ليفيت، والتي كتبها ستيفن إيرلانجر Steven Erlanger، مدير المكتب الإقليمي لصحيفة النيويورك تايمز New York Times في القدس،[3] من تنديد وتشكيك بقلم باري روبين Barry Rubin، مدير قسم البحث العالمي التابع لما يُعرف بمركز العلاقات الدولية International Affairs Centre في "إسرائيل"، الذي اعتبر ما كتبه إيرلانجر "هِجاءاً صادماً معادٍ لإسرائيل".[4] كما يصفه بالمراسل الصحفي غير النزيه، الذي يعاني من قصور في فهمه للقضايا المعاصرة التي كان يطلب منه تغطيتها. وفي معرض ردّ روبين على إيرلانجر، نجده يجزم بأنه ليس صحيحاً على الإطلاق بأن حماس ومناصريها يتبنّون ما يتبنّون من قناعات كردّ فعل على الاحتلال الإسرائيلي لكل من الضفة الغربية وقطاع غزة كما يرى إيرلانجر، وإنما لكونهم يرغبون بمحو "إسرائيل" عن الخريطة. ويخلص روبين إلى القول بأن: "حماس تؤمن بأن الاستمرار في محاربة إسرائيل والتنكر للتنازلات الإسرائيلية [للفلسطينيين]، وضمان فشل عملية السلام، هي الطريقة الأفضل لحشد تأييد الفلسطينيين للثورة الإسلامية" . وفي وجهة نظر تمثّل الصورة السائدة عن حماس في "إسرائيل" والولايات المتحدة الأمريكية، يُصنّف روبين حماس على أنها مجموعة "إرهابية عنصرية" تخطط للقيام بعمليات تطهير عرقي ضدّ "الشعب الإسرائيلي".

لقد كان الهدف الأساسي من إصدار كتاب "حماس: فصول لم تكتب" باللغة الإنجليزية هو الإسهام في سدّ ثغرة طالما وُجدت في الأدبيات العالمية المعاصرة حول حركة حماس، وتقديم سرد صادق لتاريخ الحركة، وإجراء تحليل دقيق للقيم والمبادئ التي تؤمن بها حتى يتسنى للقراء التمييز بين ما هو أساسي وما هو هامشي، في فكرها وممارستها، ولا يكون ذلك إلا من خلال دراسة ما صدر عن قادتها ومنظّريها من مواقف وتصريحات عبر السنوات. يسلّط الكتاب الضوء على كيفية مواجهة حماس للتحديات التي واجهتها، وكيفية تعاطيها مع الأصدقاء والخصوم، وقدرتها على التعافي من النكسات القاتلة التي يبدو أنها لا مفر منها تماماً. كما يتطرق الكتاب إلى العوامل التي تحولت بسببها حركة حماس بنظر العديد من الفلسطينيين إلى

بديل مُقنع سَحب بساط الشرعية عن رموز الكفاح السابقة، وبالذات عن حركة فتح التي شكّلت العصب الأساسي لمنظمة التحرير الفلسطينية، واحتكرت العمل الوطني الفلسطيني والنطق باسم الفلسطينيين لعقود متعاقبة قبل أن تولد حماس.

يختلف هذا الكتاب عن غيره مما أُلِّف عن حماس بأنه لا يحصر النقاش عن الحركة في السياق المحلي والإطار الإسرائيلي فقط، بل يضعها في سياق عالمي أشمل. فحماس ظاهرة عربية إسلامية، يرى المنتمون إليها من أبناء فلسطين بأنهم الضحايا المباشرون للمؤامرة التي حاكها نظام عالمي جائر، والمتمثلة بإقامة "دولة يهودية" في قلب الأراضي العربية والإسلامية. ومن هنا تأتي رؤية منتسبي حركة حماس للإسرائيليين، فهؤلاء دخلاء وغزاة، اغتصبوا من شعبهم أرضه وطردوه من دياره، واضطهدوا أبناءه جيلاً بعد جيل. وفي حين أن أنشطة حماس تهتم في المقام الأول بالأمور المحلية، إلا أن لها آثاراً وعواقب إقليمية وعالمية. فالنضال ضدّ "إسرائيل" هو واحد من عناصر متعددة تتضافر معاً لتشكل فكر الحركة وتوجّه مسار فعالياتها، ولكنه ليس العنصر الوحيد بأي حالٍ من الأحوال. فحماس التي تعود في جذورها إلى حركة الإخوان المسلمين، خرجت من رحم مشروع اجتماعي دافعه العمل الخيري والإحسان.

قد تكره بعض الأوساط جماعة الإخوان المسلمين وقد تهابها، ولكنها محبوبة ومؤيدة ومحط إعجاب الملايين من العرب والمسلمين حول العالم. كما تحظى باحترام العديد من غير المسلمين الذين درسوها أو تعرفوا عليها جيداً من خلال كتابات قادتها أو من خلال التواصل معهم مباشرة. وجماعة الإخوان المسلمين حركة إصلاحية شاملة، نشأت مصرية، ولكنها ما لبثت أن اتّسعت دائرة نشاطها إلى أن تحولت إلى شبكة عالمية. تأسست الحركة الأم سنة 1928 في مدينة الإسماعيلية المصرية على يد حسن البنا (1906–1949)، الذي كان يعمل مدرِّساً في مدرسة إبتدائية لا تبعد كثيراً عن مقر قيادة قوات الاحتلال البريطاني. ومن خلال الجمع بين عناصر الروحانية المستمدة من ارتباط البنا بالطريقة الحصافية الصوفية وتعاليم العقيدة التوحيدية التي نهل مبادئها البنا في مدرسة محمد رشيد رضا (1865–1935)، أهم مريدي الشيخ محمد عبده (1849–1905) وأكثر المقربين منه. سرعان ما لقي مشروع جماعة الإخوان المسلمين قبولاً شعبياً كبيراً؛ فبعد شهور معدودة من ولادة الجماعة رأيناها

تنمو بسرعة فائقة داخل القطر المصري وخارجه. ففي داخل مصر، كان للحركة 4 فروع سنة 1929، زادت إلى 15 فرعاً سنة 1932، ووصلت إلى 300 مع حلول سنة 1938، وما إن حلّت سنة 1948 حتى فاق عددها 2,000 فرع. وأما أعضاء الجماعة فكانوا سنة 1945 يُعدون نصف مليون في مصر وحدها. وبين سنتَي 1946 و1948 افتتحت للجماعة فروع في كل من فلسطين والسودان والعراق وسورية.

كما تجلت عبقرية البنا في قدرته على توصيل القضايا التي شغلت النخب المثقفة في زمانه إلى عامة الجماهير، لتصبح بذلك هموماً شعبية، وفي قدرته على تحويل المشاريع النهضوية التي كانت تحلم بها النخب والتي طرحها من سبقه من رواد الإصلاح إلى حركة شعبية ذات قاعدة جماهيرية واسعة. ولم يكن البنا يعمل من خلال المساجد، لأن روادها لم يكونوا هدفه، كما أنه لم يستهدف رواد النوادي الثقافية أو غير ذلك من أماكن اجتماع النخب، بل كانت وجهته المفضلة هي المقاهي والتجمعات الشعبية، حيث كان البنا يخطب الناس مبسّطاً لهم، من خلال مفردات خطاب يستوعبونها ولغة يفهمونها، دعوات الإصلاح التي نادى بها مصلحو القرن التاسع عشر. فعن خطر الاستعمار، صدع حسن البنا بنفس ما كان يصدع به جمال الدين الأفغاني (1838–1897) ومصطفى كامل (1874–1908)، وحول خطر الربا وضرورة مكافحته كان ينادي بما نادى به من قبل كلّ من محمد عبده ومحمد رشيد رضا. وحول الموقف من النفوذ المتعاظم للشركات الأجنبية تأثر أيضاً بمصطفى كامل، وحين تحدث عن مساوئ الفوضى الفكرية وفقدان القيم الأخلاقية فأثرُ سَلَفَيْه محمد عبده ومحمد رشيد رضا في تفكيره كان واضحاً. كما تجلت أفكار جمال الدين الأفغاني وشكيب أرسلان (1869–1946) في إدانته للتقليد الأعمى للغرب، وأفكار شكيب أرسلان في انتقاده للقوانين الوضعية التي فشلت في مكافحة الجريمة وردع المجرمين. وحول سوء إدارة التعليم كان البنا يطرح بأسلوبه المتميز ما كان يحذر منه محمد عبده، وكان حديثه عن دور تفشي اليأس وانعدام الإرادة في انحطاط الأمة إنما هو صدى لما كان يردده من قبل شكيب أرسلان ومصطفى كامل.[5]

في تشخيصه للفوضى السياسية في زمنه، كان البنا يرى أن الانقسامات الحزبية كانت تفاقم من المشاكل والأزمات التي كانت الأمة تعاني منها أصلاً نتيجة للتخلف والاستعمار؛ فحمل على عاتقه مهمة تنبيه الشعب المصري إلى أهمية الوحدة والتحذير

من أن الأمة لن تتمكن من مواجهة الهيمنة الاستعمارية طالما بقيت متفرقة متنازعة. ولم تقتصر رسالته على مصر بل تجاوزتها لتنتشر في ربوع العالم الإسلامي الذي كان خاضعاً في معظمه للاحتلال الأجنبي. وحمّل البنا القوى الأوروبية مسؤولية "تقطيع أوصال الإمبراطورية الإسلامية والقضاء على الدولة الإسلامية ومحوها من لائحة الأمم القوية والحية". وتأكيده على أن جماعته تضع نصب عينيها هدفين على المدى البعيد، أما أولهما فتحرير بلاد المسلمين من الاستعمار الأجنبي، وأما ثانيهما فإقامة دولة الإسلام فيها. إلا أن تحقيق أيّ من هذين الهدفين لا بدّ أن يسبقه الاهتمام باحتياجات المجتمع الأكثر إلحاحاً. لقد كان مشروع البنا قبل كل شيء السعي "لإعادة تأهيل" الأمة، بدءاً بالفرد ومروراً بالأسرة وانتهاء بالمجتمع ككل، ولا سبيل لذلك إلا من خلال عملية إصلاح تدريجي.

وقد تمّ السعي لتحقيق الهدفين نفسهما، باستخدام منهجية الإصلاح التدريجي نفسها، من قبل فروع الإخوان في جميع أنحاء المنطقة العربية، بما في ذلك فلسطين، حيث ترسخت جذور الإخوان الفلسطينيين بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة. افتتح الإخوان الفلسطينيون بداية بضعة مكاتب محلية في قطاع غزة. وفي 1946/5/6 أوشك هيكلها على الاكتمال مع الافتتاح الرسمي للمكتب المركزي للحركة في القدس بحضور أعيان ووجهاء محليين، وشارك في الحفل ضيوف حضروا من القاهرة ممثلين للحركة الأم في مصر. إلا أن قيام "دولة إسرائيل" سنة 1948 على ثلثي مساحة فلسطين أدى إلى شطر الإخوان الفلسطينيين إلى تنظيمين منفصلين، أحدهما في غزة التي خضعت للحكم العسكري المصري والآخر في الضفة الغربية التي ضُمّت إلى شرق الأردن ثم أصبحت جزءاً من المملكة الأردنية الهاشمية في حينه. تبدأ فصول هذا الكتاب من اللحظة التي التأم فيها الشمل الفلسطيني بعد أن احتلت "إسرائيل" سنة 1967 ما تبقى من فلسطين.

الفصل الأول: "البدايات"؛ يُستهل الفصل الأول بوصف مختصر للحادث الذي أشعل شرارة الانتفاضة يوم 1987/12/8 والظروف التي أدت إلى ولادة حركة حماس فيما بعد. يتطرق البحث في هذا الفصل إلى تطورات الأحداث التي شهدها العقدان اللذان سبقا ولادة الحركة. فمنذ سنة 1967 وحتى سنة 1977 كان الإخوان في فلسطين منشغلين بترتيب أوضاعهم الداخلية، وتوحيد صفوفهم سعياً لاستعادة بعض ما

فقدوه من قوة على الأرض لصالح الحركات الوطنية العلمانية التي اكتسبت شعبيتها من تصدرها للمقاومة ضدّ الاحتلال الإسرائيلي. وفي داخل فلسطين، كانت قيادة الإخوان المسلمين تواجه تحدّياً لاتخاذ موقف ضدّ الاحتلال الإسرائيلي. أما خارج فلسطين، فقد لعبت الحركة الطلابية الفلسطينية، وخصوصاً في مصر والكويت، دوراً مهما في "تثوير" الفكر الحركي داخل حركة الإخوان الفلسطينيين.

الفصل الثاني: "من الدعوة إلى الجهاد"؛ يستأنف هذا الفصل رواية قصة الإخوان الفلسطينيين ابتداءً من سنة 1977، وهي السنة التي بدأ فيها إخوان فلسطين بالتخطيط لإطلاق مشروع المقاومة الخاص بهم، والذي أبصر النور بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ، أي مع اندلاع الانتفاضة. شهد ذلك العقد ولادة المؤسسات الرئيسية، مثل المجمع الإسلامي والجامعة الإسلامية اللذين وفَّرا للمجتمع الفلسطيني خدمات أساسية في المجالات الاجتماعية والطبية والتعليمية، ولعبا دوراً مهماً في تعزيز مكانة الحركة على المستوى الشعبي.

الفصل الثالث: "حرب لا هوادة فيها"؛ يستعرض الفصل الثالث أهم الأحداث التي أثرت على حركة حماس بعد تأسيسها، وذلك ابتداءً من تداعيات الأيام الأولى لاندلاع الانتفاضة، وحتى إعلان التوصل إلى اتفاق أوسلو Oslo Agreement بين منظمة التحرير الفلسطينية و"إسرائيل" سنة 1993. خلال تلك الفترة شنت "إسرائيل" الحملة العنيفة تلو الحملة على حركة حماس، فنفذت الاعتقالات ضدّ قادة الحركة وناشطيها وأبعدت المئات منهم إلى لبنان. دفعت هذه الحملات الشرسة على الحركة قادتها إلى اتخاذ قرار بنقل كل الصلاحيات التنفيذية إلى الإخوان الفلسطينيين في الخارج، وكان الهدف الأساسي من تلك الخطوة حماية الحركة من الانهيار التام تحت تأثير الضربات الإسرائيلية المتتابعة. تلك هي الظروف التي أبصر فيها الجناح العسكري للحركة، كتائب الشهيد عز الدين القسام، النور كرد فعل للحملة القاسية التي قامت بها قوات الاحتلال الإسرائيلي.

الفصل الرابع: "اللجوء إلى الأردن"؛ يحكي هذا الفصل قصة انتقال قيادة حركة حماس إلى الأردن بعد غزو صدام حسين للكويت سنة 1990. في بداية الأمر غضت السلطات الأردنية الطرف عن عملية الانتقال السرية التي قامت بها الحركة، إلا أن جو التجييش الشعبي الذي هيمن على الأردن خلال حرب الخليج تحسباً من

اجتياح إسرائيلي واسع سرعان ما تبدد، فتمّ اعتقال ناشطين من حماس بينما أجبر آخرون على التخفي أو الخروج من البلاد، وأعاد الأردنيون النظر في الآمال التي كانوا يعلقونها على دعم حماس في خصومتهم مع السلطة الفلسطينية. أدت اتفاقية "وادي عربة للسلام" بين الأردن والسلطة الفلسطينية، إلى جانب الضغط المتزايد على السلطات الأردنية، إلى تقليص حجم حماس وإبعاد قادتها غير الأردنيين عن البلاد. ويعالج هذا الفصل أيضاً، بشيء من التفصيل، تطورين آخرين، أما الأول فتوقيف موسى أبو مرزوق، أحد قادة حماس، في مطار كينيدي Kennedy Airport في نيويورك واحتجازه فيما بعد، الأمر الذي لم يترك أمام الأردن خياراً سوى استعادته بعد سنتين من الاحتجاز، وأما الثاني فاتساع هوة الخلاف بين قيادة حماس وقيادة إخوان الأردن.

الفصل الخامس: "حكاية مشعل"؛ يسرد هذا الفصل قصة محاولة الاغتيال الإسرائيلية الفاشلة التي تعرض لها أحد قادة حماس، خالد مشعل. وقد عادت هذه المغامرة الإسرائيلية بمنافع غير متوقعة على حماس، ففي سبيل إنقاذ العلاقة الخاصة التي تربطهم بالأردن، اضطر الإسرائيليون إلى الموافقة ليس فقط على إنقاذ حياة مشعل، بل أيضاً على إطلاق سراح مؤسس الحركة، الشيخ أحمد ياسين، من الأسر. انتهز الشيخ ياسين فرصة إطلاق سراحه ليقوم بجولة في عدد من البلدان العربية والإسلامية ليحشد الدعم للحركة. وعلى الرغم من حدوث تحسن بسيط في العلاقات بين حماس والأردن بعد ذلك، إلا أن الأزمة سرعان ما تفاقمت من جديد نتيجة توالي الضغوط على الأردن من قبل الولايات المتحدة الأمريكية و"إسرائيل" والسلطة الفلسطينية.

الفصل السادس: "الخروج من الأردن"؛ يسرد الفصل السادس الأحداث التي أدت إلى إخراج حماس بشكل كامل من الأردن. فبعد وفاة الملك حسين في كانون الثاني/ يناير 1999، لم يعد النظام الأردني يرى مصلحة له في وجود الحركة في الأردن. بدأت السلطات الأردنية تنفيذ خطتها للتخلص من حماس حينما كان مسؤولو الحركة الكبار في زيارة إلى طهران في صيف سنة 1999؛ وقد كان تدهور العلاقات بين إخوان الأردن وحماس عاملاً مساعداً في عملية التخلص من حركة حماس في الأردن. وانتهت الخطة بإنهاء وجود حماس في الأردن وإقفال مكاتبها وترحيل قادتها، فانتقل المكتب

السياسي للحركة إلى دمشق بعد أن وافقت السلطات السورية على إعطاء حماس مساحة للتحرك وتأمين الحماية لرموزها ونشطائها.

الفصل السابع: "التحرير في فكر حماس"؛ يناقش هذا الفصل موقف حماس من اليهود و"دولة إسرائيل"، كما يتطرق إلى الوسائل العسكرية التي تلجأ إليها الحركة في مقاومتها للاحتلال وخصوصاً العمليات الاستشهادية. يتناول الفصل بالتحليل التطورات المهمة التي طرأت على خطاب حماس السياسي حول هذه القضايا وغيرها منذ صدور ميثاق الحركة سنة 1988، وخصوصاً أن ميثاق الحركة ما فتئ يسبب لها حرجاً على الساحة الدولية، حيث استشهد به خصوم حماس ومنتقدوها أكثر مما استشهد به المتحدثون باسمها. يسعى المؤلف في هذا الفصل إلى إثبات أن الميثاق لم يعكس يوماً بدقة فلسفة الحركة أو وجهة نظرها السياسية. وفي النهاية، يتطرق الفصل بشيء من التفصيل إلى مفهوم الهدنة أو اتفاق وقف إطلاق النار الذي عرضته حماس على الإسرائيليين منذ سنة 1994.

الفصل الثامن: "الجهاد والاستشهاد"؛ يتناول هذا الفصل النقاش الدائر حول قضية الاستشهاد في إطار الفكر السياسي الإسلامي المعاصر، والأمر ذو علاقة مباشرة بحماس التي يلجأ جناحها العسكري من حين لآخر إلى استخدام "العمليات الاستشهادية" كسلاح في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي. يبدأ الفصل بشرح مفهومي الجهاد والقتال ويضعهما في سياقهما التاريخي، ثم يستعرض من بعد تطبيقاتهما في الحياة الإسلامية المعاصرة مستنتجاً أن الجدل حول هذا الموضوع ذو طابع سياسي لا فقهي. تتجلى هذه الاختلافات بوضوح عند الإجابة على كل واحد من الأسئلة الثلاثة التالية:

أولاً: هل الفعل انتحار مشين أم تضحية نبيلة بالنفس؟

ثانياً: ما هي الأهداف المشروعة والأهداف غير المشروعة؟

ثالثاً: هل يخدم القضية اللجوء إلى هذه الوسيلة أم أنه يلحق الضرر بها؟

الفصل التاسع: "حماس والمنظمة والسلطة"؛ يركز هذا الفصل بالتحديد على موقف حركة فتح، المنافس الأساسي لحماس على الساحة الفلسطينية، من حركة

حماس. فمنذ البداية رأت فتح، التي كانت احتكرت أيضاً قيادة منظمة التحرير الفلسطينية وتولت فيما بعد قيادة السلطة الوطنية الفلسطينية، في حركة حماس خطراً داهماً عليها، وبالتالي حاولت بعدة طرق أن تقوض حماس أو على الأقل أن تهمشها. بادئ ذي بدء بادرت فتح حماس بالتجاهل التام، فتصرفت وكأن حماس غير موجودة، ثم حاولت من بعد، وإثر نشوء ظروف مغايرة، احتواءها أو تصفيتها.

الفصل العاشر: "نحو انتفاضة ثالثة"؛ يستهل الفصل بالحديث عن تداعيات وفاة ياسر عرفات في تشرين الثاني/ نوفمبر 2004، ثم يتطرق إلى التطورات التي أدت إلى إجراء انتخابات المجلس التشريعي في كانون الثاني/ يناير 2006 وتداعيات الفوز الكاسح الذي حققته حركة حماس، كما يستعرض بعض الإجراءات التي لجأ إليها خصوم حماس بما في ذلك الإسرائيليون والأمريكان وبعض قادة فتح في محاولة منهم لإرغام الحركة على التخلي عن قيادة السلطة الفلسطينية التي آلت إليها بعد أن خسرتها فتح ديموقراطياً. يلمح عنوان الفصل إلى أنه إذا ما نجحت الجهود التي تُبذَل للإطاحة بحماس، فإنها ستأتي بنتائج عكسية مخالفة لما ترمي إليه، إذ من المحتمل أن تؤدي إلى اندلاع انتفاضة ثالثة، من الأرجح أن تكون أكثر عنفاً من سابقاتها.

يهدف الموضوع الذي يسعى هذا الكتاب لطرحه إلى تقديم صورة أوضح لطبيعة حماس وما تمثله. وقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب باللغة الإنجليزية في سنة 2007. ويأمل المؤلف بإخلاص أن يُقدم الكتاب وصفاً دقيقاً للجمهور حول هذا الموضوع، ولمن يعمل في المجال الأكاديمي أو في وسائل الإعلام أو في الميدان السياسي، ويسعى لرؤية نهاية للصراع في الشرق الأوسط، أو يعمل من أجل تحقيق هذه النتيجة، نأمل أن يجد هؤلاء جميعاً في هذا الكتاب مساهمة قيمة.

د. عزام التميمي

الفصل الأول

البدايات

البدايات

"كنا في حالة الاستعداد والتكوين، حتى جاءت اللحظة التي أخذنا فيها قرار بداية العمل ضدّ الاحتلال الصهيوني، وضدّ الوجود الإسرائيلي على أرضنا ووطننا".[6]

الشيخ أحمد ياسين

في يوم الأربعاء 1987/12/9 قدم مراسل الأسوشييتد برس Associated Press تقريره من غزة واصفاً كيف فتح الجنود الإسرائيليون النار على "محتجين عرب كانوا يرشقون الزجاجات في موجة عنف أشعل شرارتها حادث سير". ما وصفه المراسل بأنه حادث سير لم يكن بالنسبة للفلسطينيين أقل من جريمة قتل متعمّدة. وقد وقعت تلك الجريمة في الليلة التي سبقت هذا التاريخ، حيث قُتل ثلاثة عمال فلسطينيون وجرح سبعة آخرون حين اقتحم سائق جرافة عسكرية إسرائيلية بجرافته عربتي نقل كانتا تقلان العمال العائدين إلى منازلهم من "إسرائيل"، و"حادث السير" هذا كان الحدث البارز الذي انبثقت عنه كل التغييرات المهمة التي حدثت في فلسطين في السنوات اللاحقة.

في ليلة 1987/12/9، وبعد يوم مليء بالأحداث، عقد الرجال السبعة الذين كانوا يشكلون القيادة العليا للإخوان المسلمين في غزة، اجتماعاً طارئاً ضمّ كلاً من الشيخ أحمد ياسين، والدكتور عبد العزيز الرنتيسي، وصلاح شحادة، وعبد الفتاح دخان، ومحمد شمعة، وإبراهيم اليازوري، وعيسى النشار؛[7] وكانت هذه القيادة قد طلبت في وقت مبكر من ذلك اليوم من موظفي وطلاب الجامعة الإسلامية، أحد أهم مؤسسات الإخوان في قطاع غزة، أن يقفلوا أبواب الجامعة عند الظهيرة ويعلنوا الإضراب العام. واستجابة لهذا الطلب، تجمهر الناس بأعداد غفيرة في محيط مستشفى الشفاء، حيث بقي الكثير منهم حتى ساعة متأخرة من المساء ينتظر دوره ليتبرع بالدم. وخلال اجتماعهم في تلك الليلة، اتخذ قادة الإخوان السبعة قرارهم التاريخي بتحويل تنظيم الإخوان في فلسطين إلى حركة مقاومة ستُعرف فيما بعد باسم حركة المقاومة الإسلامية "حماس"؛ ووضع الدكتور عبد العزيز الرنتيسي مسوّدة أول بيان رسمي للحركة، ووُزّع البيان على الصحافة يوم 1987/12/14 ليصبح ذلك اليوم التاريخ الرسمي

لولادة حركة حماس. ولعشر سنوات خلت، كان الشيخ أحمد ياسين وإخوانه يعدون العدة لهذه اللحظة، مع أنه لم يكن لديهم أي إنذار مسبق بأن ما طال الإعداد له كان سيولد في ذلك الوقت بالذات، أو بتلك الطريقة المحددة.

كانت الحياة في قطاع غزة تزداد صعوبة لدرجة لا تطاق منذ سنة 1977، وهي السنة التي شهدت في حزيران/ يونيو وصول اليمين الإسرائيلي متمثلاً بالليكود Likud إلى الحكم للمرة الأولى. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر من السنة ذاتها، زار الرئيس المصري أنور السادات القدس وألقى خطاباً أمام الكنيست Knesset، موجهاً ضربة قاصمة لآمال الفلسطينيين الذين كانوا يرجون أن تلعب مصر، الدولة العربية الشقيقة الكبرى، دوراً، أي دور، في تخليصهم من الظلم وتحرير أرضهم. فقبل صعود السادات إلى سدة الحكم بوقت طويل، كان الفلسطينيون يأملون بأن تقوم مصر بتحريرهم. إذ كان هذا وعد سلف السادات جمال عبد الناصر، وهو الوعد الذي نكث به النظام الذي ظهر أنه كان مهتماً فقط باسترجاع سيناء من "إسرائيل" التي احتلتها لمدة عشرة أعوام.

والمفارقة الغريبة أنه منذ خضوعهم للاحتلال الإسرائيلي في سنة 1967، عرف الفلسطينيون في غزة شيئاً من الازدهار الاقتصادي النسبي؛ حيث كان بإمكان العمال الفلسطينيين أن يعبروا بسهولة نسبية إلى "إسرائيل"، ويحصلوا على مبالغ مالية معقولة من خلال العمل بالمياومة، الذي كان متوفراً بكثرة، وفي الوقت نفسه، كان يمكن للإسرائيليين أن يأتوا إلى غزة ليتسوّقوا، في منطقة التجارة الحرة غير المعلنة وغير الخاضعة للضرائب، وبالتالي كانت الأسعار فيها مغرية. ومما لا شكّ فيه أن هزيمة الجيوش العربية سنة 1967 التي أدت إلى احتلال "إسرائيل" لما تبقى من فلسطين، كانت نعمة مبطنة على الفلسطينيين،[8] فمع أن قطاع غزة خضع للاحتلال الإسرائيلي، إلا أنه تحرّر من النظام المصري الجائر بقيادة جمال عبد الناصر.[9] بالإضافة إلى ذلك، أصبح بالإمكان دخول غزة من الضفة الغربية، كما فُتحت المنطقتان أمام فلسطينيي 1948 الذين يحملون الهويات الإسرائيلية، والذين رأوا في ذلك فرصة "لإعادة لم شمل العائلات".[10]

إلا أن الإذلال اليومي الذي كان يتعرض له العمال الفلسطينيون الذين كانوا يعبرون "الخط الأخضر" إلى "إسرائيل"، تاركين وراء ظهورهم كرامتهم واحترامهم

لذاتهم، نغّص بشكل تدريجي على الفلسطينيين ما كان يبدو أنه حالة من الازدهار حملها الاحتلال الإسرائيلي معه للأراضي التي احتلها سنة 1967. كان المجتمع الإسرائيلي بحاجة إلى العمال، لكنه كان في الوقت نفسه يحتقرهم على اعتبار أنهم "الآخرون"، فقد كان ينظر إليهم على أنهم مختلفون، "أشباه بشر" لا يستحقون الاحترام. ناهيك عن أن وجود العمال بحدّ ذاته في أوساط الإسرائيليين كان يشكل تذكيراً يومياً مريراً للإسرائيليين بأنهم يعيشون على أرض سُلبت قبل عقود قليلة خلت من آباء هؤلاء العمال الفلسطينيين وأجدادهم. هذا الشعور بالغضب والاستياء الذي ساد في الأوساط الفلسطينية أخذ يغذّيه نمو النزعة الوطنية الفلسطينية،[11] وهبوب رياح الصحوة الإسلامية التي بدأ الناس يشعرون بها. وقد اتّفق القادة الوطنيون والإسلاميون على تحذير الفلسطينيين من مغبة "التعايش" مع مضطهديهم وتشجيعهم على الأقل على المقاطعة إذا لم يكن بمقدورهم المقاومة. وفوق كلّ شيء، كان القادة الإسلاميون قلقين ومتخوفين من تأثّر لا مفرّ منه للعمال الفلسطينيين مما يرونه من انفلات ولا أخلاقية في عادات المجتمع الإسرائيلي. إلا أنه في الوقت نفسه، كانت أنشطة المقاومة المتفرقة التي ينفّذها أعضاء في فصائل المقاومة الفلسطينية، مثل حركة فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، غالباً ما تجر على الفلسطينيين عقوبات جماعية قاسية، حيث كانت قوات الاحتلال تنفّذ عمليات أمنية بالغة الوحشية، وتقوم باعتقالات عشوائية وخصوصاً في صفوف سكان المخيمات في الضفة الغربية وقطاع غزة. وخلال فترة الاعتقال والخضوع للتحقيق، كان الفلسطينيون يتعرضون للتعذيب الجسدي والنفسي، الذي كان يترك ندوباً لا تندمل.

كان ذلك هو الجو السائد في فلسطين حين صدم الرئيس المصري أنور السادات العالم برحلته إلى القدس سنة 1977، التي مهَّدت الطريق أمام مباحثات كامب ديفيد Camp David Accords، التي أدت بدورها إلى التوقيع على اتفاقية "سلام" بين "إسرائيل" ومصر بحضور الرئيس الأمريكي جيمي كارتر Jimmy Carter، وذلك في حديقة البيت الأبيض في واشنطن في 1978/9/17، ودخلت الاتفاقية حيّز التنفيذ في 1979/3/26. والمثير للسخرية أن يتم توقيع اتفاقية "السلام" هذه بين مصر، التي كانت "إسرائيل" تعدّها تاريخياً عدوّها الأساسي في العالم العربي، وأول حكومة يمينية إسرائيلية برئاسة مناحيم بيجن Menachem Begin، مع أن مناصري الليكود بشكل عام يتبنون مقولة أن حدود "إسرائيل" يجب أن تكون تلك التي من المفترض

أن يرثها اليهود بموجب الحق الإلهي، أي من النيل إلى الفرات. بالاحتفال بتحقيق "السلام" مع مصر، دخلت القضية الفلسطينية أدراج النسيان. ففي ذلك الوقت، استمرت "إسرائيل" بتوجيه الضربة القاصمة تلوَ الأخرى للمقاومة "الوطنية" الفلسطينية؛ وبالتالي إضعاف الفصائل الفلسطينية التي كانت منضوية تحت مظلة منظمة التحرير الفلسطينية.

استحدثت حكومة الليكود التي وصلت إلى السلطة تغييراً أساسياً في حياة الناس في غزة،[12] إذ كانت هي الحكومة التي سمحت بإقامة أولى المستوطنات اليهودية في قطاع غزة الذي يعدّ أصلاً من أكثر مناطق العالم اكتظاظاً بالسكان. وعدا عن الغضب الذي شَعر به الفلسطينيون تجاه تحييد مصر من الصراع العربي الإسرائيلي، بدا وكأن سكان غزة قد تمّ اختيارهم ليدفعوا ثمن عملية صناعة "السلام". فبعد أن سحب الإسرائيليون قواتهم ومستوطنيهم من سيناء، أرسل الإسرائيليون المزيد من الجنود إلى قطاع غزة. وعلى الرغم من توقيع اتفاقية "سلام" مع مصر، إلا أن الإسرائيليين لم يعدلوا سياسة التجنيد الإجباري التي كانوا يتّبعونها، وبالتالي لم يكن هناك مكان لإرسال المجندين إليه سوى الأراضي المحتلة. قبل توقيع اتفاقية "السلام" بين مصر و"إسرائيل"، كانت حدود الأمر الواقع التي رسمتها "إسرائيل" بعيدة جداً عن غزة؛ إلا أنه في المرحلة الجديدة من "السلام" المصري الإسرائيلي، أصبحت غزة هي الحدود بين البلدين، وبالتالي فإن "إسرائيل" أخذت ترسل قواتها الحدودية إليها بأعداد كبيرة.

وتدريجياً، توسّعت دائرة الإذلال الذي كان يتعرض له العمّال الفلسطينيون لتشمل كلّ سكان غزة. وفي إطار سياسة اجترحها أريل شارون، الذي أصبح سنة 1981 وزيراً للحرب في حكومة الليكود، أرسلت إلى المنطقة فرق تابعة للقوات الإسرائيلية، كانت تعرف لدى الفلسطينيين باسم ذوي القبعات الحمراء، وهي تحمل أوامر باستفزاز وتخويف وإذلال العرب الذين يُشتبه بتقديمهم مساعدات للمقاومة. وأصبح من المعتاد أن تقوم القوات الإسرائيلية بنصب الحواجز داخل المناطق المحتلة من أجل اعتراض المارة من العرب وخصوصاً طلاب الجامعات والثانويات الذين كانوا يحتجزون في نقاط عسكرية ويتعرضون للإيذاء اللفظي والجسدي لا لشيء سوى الرغبة الإسرائيلية في ممارسة الغطرسة. وفي نهاية الأمر، أصبحت غزة سجناً كبيراً، ولم يعد من السهل على سكانها أن يسافروا إلى مصر. وبعد ذلك بفترة

قصيرة، مُنِع سكان غزة جميعاً من السفر إلى الأردن. ومن ناحية أخرى، فإن القيود التي فرضها الإسرائيليون على العمّال كانت تعني تضاؤل عدد النساء والرجال الذين يمكنهم كسب لقمة العيش من خلال سوق العمل الإسرائيلي المُربح. فكان كسب لقمة العيش من خلال العمل في بناء المستوطنات الإسرائيلية التي كانت تُبنى على أرض مصادرة بطريقة غير شرعية من العرب أنفسهم، أحد البدائل المذلة. وبالتالي تفاقمت الأوضاع الحياتية الصعبة لدرجة لا تُطاق، فكان الانفجار قاب قوسين أو أدنى.

تطول لائحة العوامل التي أدت إلى اشتعال فتيل الانتفاضة في كانون الأول/ ديسمبر 1987، ولكنها ليست بالضرورة العوامل نفسها التي أدت إلى ظهور حركة حماس على الرغم من تزامن الحدثَيْن. فبكل بساطة، استفاد قادة الإخوان في غزة من تفاقم الغضب والاستياء في أوساط الناس في القطاع في عملية تحويل التنظيم إلى حركة مقاومة. قلّة من أعضاء التنظيم كانوا على علم بأن قرار القيام بمثل هذه الخطوة قد اتُّخذ قبل عشرة أعوام، وثلة أقل منهم كانت على دراية بأن القرار اتُّخذ بالتنسيق مع العديد من أجنحة الإخوان الفلسطينيين في غزة والضفة الغربية والأردن وغيرها من أماكن الشتات.

كانت حرب حزيران/ يونيو 1967 قد جلبت العار للعرب ومنحت "إسرائيل" المزيد من الأراضي بما فيها قطاع غزة، والضفة الغربية، وسيناء، ومرتفعات الجولان. وخلال العقد الذي تلا، كان الإخوان في كل العالم العربي يقطفون ثمار ما كان يُنظر إليه على أنه فشل فاضح للقومية العربية. وبعد وفاة جمال عبد الناصر سنة 1970، أطلق سراح قادة الإخوان الذين قبعوا في السجون والمعتقلات المصرية لسنوات طويلة؛ وهي خطوة صبَّت في صالح الإخوان الذين تفوقوا على تنظيمات أخرى كانت تنافسهم على استقطاب الأعضاء الجدد، وكان كل ذلك يحدث في أجواء الصحوة الإسلامية التي ولدت من رحم هزيمة سنة 1967.[13] وفي فلسطين، انضوى الشبان، وكان بعضهم من الفتيان الصغار، في صفوف الإخوان، فكان معظم الأعضاء الجدد من داخل الوسط الطلابي.

تعود حالة الإحياء أو الانبعاث التي شهدتها حركة الإخوان في غزة إلى جهود بعض الرجال المخلصين الذين رأوا في الجهل وعدم الالتزام بتعاليم الإسلام أكبر التهديدات التي تواجه مجتمعهم. وكانت قيادات الإخوان تُرجع ذلك كله إلى الاضطهاد المنهج

الذي كان يمارسه النظام الرسمي، وترى أن "إسرائيل" هي المستفيد الحقيقي منه. فعدم قدرة سكان غزة على مقاومة سياسات سلطات الاحتلال الإسرائيلية الفاسدة دقّت أجراس الخطر عند القيادات الإسلامية، إذ وحده الإسلام المبني على القيم الأخلاقية يمكنه أن يجعل شخصاً عاطلاً عن العمل أو فقيراً من سكان غزة يرفض عرض ضابط إسرائيلي بأن يوفر له حياة مريحة ووظيفة جيدة، أو إذناً بالسفر إلى الخارج من أجل العمل أو متابعة دراسته، مقابل التعاون مع السلطات الإسرائيلية. فبكل بساطة، لم يكن بإمكان "إسرائيل" أن تسيطر على الأراضي المحتلة من دون عملاء فلسطينيين. كانت "إسرائيل" تتّبع سياسة واضحة في تحويل أكبر قدر ممكن من الفلسطينيين إلى مخبرين وجواسيس على شعبهم، أو على الأقل إلى مستفيدين من الاحتلال، وذلك من أجل المحافظة على الوضع القائم. وكانت الأدوات التي تستخدمها "إسرائيل" من أجل تجنيد أو ابتزاز العملاء هي المال والمخدرات والإغواء الجنسي، بالإضافة إلى ترغيبهم بالعائدات المادية التي يمكن أن تخفف من حالة الحرمان التي كان الناس يُعانون منها تحت وطأة الحصار. كل هذا دفع بالإسلاميين إلى البدء بمشروع طويل المدى يهدف إلى حماية سكان غزة من هذه المخاطر، وكان على رأسهم مدرّس يعاني من الشلل الرباعي اسمه أحمد ياسين.

ولد أحمد ياسين في حزيران/ يونيو 1936 في قرية جورة عسقلان، بعد أقل من سنة على قيادة الشيخ عزّ الدين القسام[14] أول ثورة مسلحة ضدّ قوات الاحتلال الأجنبية في فلسطين. وكانت تلك السنة سنة الإضراب الكبير الذي أعلنه الفلسطينيون احتجاجاً على السياسات البريطانية المؤيدة للصهيونية، وقد استمر هذا الإضراب ستة أشهر، من أيار/ مايو إلى تشرين الأول/ أكتوبر 1936. كان أحمد ياسين مجرّد طفل في الحادية عشرة من عمره حين أجبرت نكبة سنة 1948 والدته على الهرب بأولادها في إطار موجة النزوح الكبيرة التي حدثت في تلك السنة؛ إذ هرب فلسطينيو قرية الجورة وغيرها من القرى والمدن المجاورة خوفاً مما كانوا يعدّونه موتاً محتماً على يد العصابات الصهيونية المسلحة؛ فقد كان الصهاينة يهدفون إلى تطهير أرض فلسطين من سكانها من أجل تمهيد الطريق أمام إقامة دولة يهودية خالصة في فلسطين.[15]

توفي إسماعيل، والد أحمد ياسين، حين كان أحمد في الرابعة أو الخامسة من عمره تقريباً، فكان قدره أن يعيش يتيم الأب مشرّداً في مخيم اللاجئين في قطاع غزة، على

مرمى حجر من بيته السابق في قرية الجورة التي استوطن فيها مهاجرون يهود من أوروبا، كانوا يدّعون أنهم عادوا إلى أرض أجدادهم التي زعموا أنّهم تركوها قبل ألفي عام. ومثلها مثل مئات آلاف الفلسطينيين، عاشت عائلة ياسين مرارة المعاناة بسبب وعد إلهي مزعوم من الله للإسرائيليين. أدرك أحمد ياسين لاحقاً أن بلاده سلبت من شعبها لأسباب سياسية دنيوية خالصة، لا علاقة للدين بها. حتى لحظة إجبار أهله على الخروج من الجورة، لم يكن أحمد ياسين يستمتع بشيء أكثر من اللعب على شاطئ البحر على بعد مئتي متر فقط من بيته،[16] حيث كان يجلس على تلة قريبة يُراقب القوات المصرية والبريطانية وهي تتحرك شرق الجورة وغربها. كان الجميع يتوقع حصول تطورات دراماتيكية كبيرة، وسرعان ما بدأت أنباء المجازر الصهيونية في فلسطين تتوالى، زارعة الرعب في عقول القرويين وقلوبهم.[17] انضمت عائلة ياسين إلى غيرها من العائلات التي أخذت تُعبّر عن سخطها من الجيوش العربية التي وصلت إلى فلسطين واعدة بمحاربة الصهيونية وتخليص فلسطين وإنقاذ شعبها، لكنها لم تفعل شيئاً سوى أنها نزعت السلاح من أيدي الناس، بدعوى أنها هي وحدها القادرة على القيام بما هو مطلوب. لم تفِ هذه الجيوش بأيٍّ من وعودها، بل لقد أسهمت في التسبب بالنكبة التي مُني بها الفلسطينيون.[18]

تفاقم ألم التشرد بسبب الفقر، وشكّلت المساعدات الغذائية التي تُقدمها القوات المصرية المتمركزة في غزة سنداً للناس في بعض الأحيان؛ ومع ذلك، اضطر أحمد ياسين أن يترك المدرسة لمدة عام من سنة 1949 إلى سنة 1950، ليعمل نادلاً في مطعم، وذلك من أجل توفير الطعام لأفراد أسرته السبعة الذين فقدوا والدهم. ثم حدثت الكارثة، فحين كان ياسين في السادسة عشرة من عمره، وقع على ظهره خلال مشاركته في ألعاب رياضية، ما تسبب بكسر في فقرات رقبته. بعد ذلك استمر وضعه الصحي بالتدهور، حتى فقد القدرة على المشي. إلا أن ما أصابه من شلل لم يمنعه من متابعة تعليمه الذي سمح له أن يكون على تماس مباشر مع الناس، خصوصاً جيل الشباب.

بعد أن أنهى دراسته في سنة 1958، عُرضت عليه فرصة متابعة تعليمه للحصول على شهادة جامعية في القاهرة، لكنه لم يكن يستطيع تحمل نفقات السفر. فعمل في التعليم على أمل أن يدخل الجامعة في يوم من الأيام، ثم زار القاهرة عدة مرات سعياً إلى العلاج. وكاد أن يحقق حلمه حين تمّ قبوله سنة 1964 في جامعة عين شمس، حيث

قام بزيارة قصيرة إلى القاهرة أكمل فيها إجراءات التسجيل والمعاملات الرسمية، وبعد أن درس لمدة ستة أشهر في غزة كطالب خارجي، عاد إلى مصر سنة 1965 ليخضع للامتحانات، ولكن آماله تحطمت عندما أعادته قوات الأمن المصرية التي كانت تسيطر على غزة في ذلك الوقت إلى دياره. وفي 1965/12/18، احتُجز للاشتباه بانتمائه إلى جماعة الإخوان المسلمين الذين تعرّضوا لحملة اضطهاد من قبل نظام جمال عبد الناصر استمرت لأكثر من عقد. وبعد شهر من الحجز الانفرادي الذي أُخضع له في سجن غزة المركزي على الرغم من إعاقته الجسدية، أطلق سراحه بعد أن أثبتت التحقيقات براءته من "الجريمة" التي نُسبت إليه. ولكنه على الرغم من ذلك، مُنع من السفر إلى القاهرة. وكان لهذه التجربة بالغ الأثر فيه، فهو لم ينتم يوماً إلى إخوان مصر، ولكنه كان متأثراً بهم. وفي سنة 1966 أو 1967 انضم بشكل رسمي إلى جماعة الإخوان التي كرَّس نفسه لها، وهو يشعر بالأسى للظلم الذي وقع بهم. ويتذكر الشيخ أحمد ياسين هذا الحدث فيقول: " أي اعتقال يؤثر في نفس الإنسان، لأن الإنسان بطبيعته لا يقبل أن توجه له تهمة لم يقمْ بها، لا يقبل على نفسه الظلم، ويشعر أنه بحاجة إلى سلطة عادلة، تمنح الإنسان حقه في الحياة، وحريته في الحياة".[19]

كان انضمام أحمد ياسين إلى حركة الإخوان تعبيراً عن التحدي، خصوصاً أن أوائل الستينيات تميّزت بالكثير من الاختلافات عن العقد الذي سبقها. ففي بداية الخمسينيات كان الانضمام إلى حركة الإخوان المسلمين أمراً شائعاً؛ فالبطولات والتضحيات التي قدَّمتها الجماعة في حرب سنة 1948 لمنع الصهاينة من السيطرة على فلسطين وتحويلها إلى "دولة يهودية"، كانت ما تزال حية في ذاكرة أهل غزة والضفة الغربية. لكن ابتداء من سنة 1954 وما تلاها، ومع انقلاب نظام عبد الناصر ضدّ الإخوان وشروعه في اضطهادهم، تضاءل شيئاً فشيئاً عدد من يودّون أن يكون بينهم وبين الإخوان أي شكل من أشكال الارتباط، وعوضاً عن ذلك، سطع نجم القومية العربية بمساعدة من أجهزة الدعاية الفعّالة والمؤثّرة والواسعة الانتشار التي كان نظام عبد الناصر يمتلكها. قدّمت العروبة نفسها كبديل تقدُّمي لحركة الإخوان المسلمين "الرجعية المتخلفة"، التي حُمّلت وزر كلّ الأخطاء التي وقعت في الماضي والحاضر. ومع أواخر الستينيات، كان من النادر أن تُعرّف أي شخصية مرموقة أو ذات مصداقية عن نفسها علناً بأنها مرتبطة بجماعة الإخوان في فلسطين. فالعديد من

هذه الشخصيات كان قد غادر البلاد بحثاً عن ظروف حياة أفضل أو بحثاً عن السلامة الشخصية. بالإضافة إلى ذلك، بدأت جماعة الإخوان تخسر بعض أفضل قياداتها، حيث أخذ هؤلاء ينضمون إلى حركة فتح التي تأسست سنة 1957،[20] والتي كرَّست نفسها للتحرر الوطني الفلسطيني. كان قادة فتح يطمحون في ذلك الوقت إلى دمج كلّ تنظيم الإخوان في فلسطين بحركتهم التي أسسوها حديثاً؛ إذ كانوا على قناعة بأن حركة الإخوان لم تَعدْ تخدم أي هدف، وأن انضمامها إلى فتح سوف يعطي مشروعهم الوليد دفعاً كبيراً في وقت واجهوا فيه هم أيضاً شيئاً من العدائية من قبل نظام جمال عبد الناصر.[21]

كان يمكن لقلةٍ من الناس فقط أن تتوقع لشاب مثل أحمد ياسين مُصاب بالشلل الرباعي أن يقود عملية تحوُّل عظيمة في حياة الفلسطينيين، ليس في قطاع غزة وحسب، بل في فلسطين كلها، بل وخارجها أيضاً. منذ البداية، وضع أحمد ياسين نُصب عينيه مقاومة الاحتلال، إلا أنه كان يعلم تمام العلم أن المقاومة ستكون هزيلة بغياب القوة والتنظيم. فكما يذكر هو بنفسه، لقد ظلّ لعدة سنين على قناعة تامة بأن مقاومة الاحتلال تتطلب تحضيرات مضنية. وقد حاولت حركة فتح التقرُّب منه سنة 1965، حين أطلقت شرارة كفاحها ضدّ "إسرائيل" على أمل أن تُجرّ الدول العربية إلى حرب مع الكيان الصهيوني، إذ دُعي ياسين إلى الانضمام للحركة، ولكنّه رفض وأصر على وجهة نظره بأن الدول العربية لم تكن تمتلك لا الجاهزية ولا الرغبة في القتال. ولم يكن ياسين يرى أيّ فائدة في جرّ هذه الدول إلى مواجهة سوف تنتهي بهزيمة مؤكدة، بل يمكن أن تؤدي إلى خسارة المزيد من الأراضي أمام الإسرائيليين.[22]

ولم يطل الوقت حتى ثبتت وجهة نظره في أكثر من مناسبة، كان أولها عندما شنّت حركة فتح هجوماً من قطاع غزة على حافلة إسرائيلية شرقي دير البلح، فردّت السلطات المصرية التي كانت تسيطر على القطاع آنذاك باعتقال وسجن المشتبه بضلوعهم في الهجوم، حيث لم تكن مصر ترغب آنذاك في أن تُجرّ إلى حرب كانت تعلم أنها لا يمكن أن تفوز فيها. وفي ذلك الوقت، اتَّهمت الحكومة المصرية الإخوان بالسعي إلى إحراج مصر، وفرض التدويل على قطاع غزة. ومع أن الإخوان لم يكن لهم أي علاقة بهذا الهجوم، إلا أنّ منفذيه كانوا أعضاء سابقين في الجماعة ممن شُجّعوا على الانضمام إلى فتح، التي كان كلّ مؤسسيها، ما عدا ياسر عرفات، أعضاء سابقين في الإخوان.[23]

أما الحدث الثاني الذي أثبت صحة وجهة نظر أحمد ياسين فكان حرب حزيران/ يونيو 1967، حيث لم تكن أي دولة من الدول العربية ترغب في مثل تلك المواجهة مع "إسرائيل"، بما في ذلك مصر التي مُنيت بهزيمة نكراء في تلك الحرب. وقد فاجأ أحمد ياسين العديد من مُعاصريه بما عبّر عنه من تشكيك خلال الأيام التي سبقت اندلاع حرب الأيام الستة، فقد كان ياسين يرى أن مصر، بكل بساطة، لم تكن مستعدة للحرب، وأن الخدعة التي قام بها عبد الناصر حين طلب من قوات حفظ السلام الأممية إخلاء سيناء ستكلّفه غالياً. فمن خلال اطّلاعه على أوضاع القوات المصرية، كان بإمكان ياسين أن يرى أنها غير مستعدة للحرب بتاتاً، فالعديد من أفراد هذه القوات كانوا من الاحتياط الذي استُدعي على عجل وأُرسل إلى المعركة. وكان ياسين يخشى أيضاً أن تقوم "إسرائيل" بشن هجوم مدمر ضدّ سلاح الجو المصري لتترك الجيش المصري يتخبط في صحراء سيناء مثل بطة عرجاء.

كان هذا بالضبط ما آلت إليه الأمور، وفيما كانت القوات المصرية تتعرّض لهزيمة نكراء من قبل الإسرائيليين، كانت آلة الدعاية الناصرية تدّعي أن اليد العليا في الحرب كانت لمصر، وأن البلد يسير نحو نصر محقق، ولكن في نهاية الأمر لم تدخل القوات الإسرائيلية إلى غزة والضفة الغربية فحسب، بل توغلت حتى وصلت إلى قناة السويس، واستولت في الوقت نفسه على مرتفعات الجولان السورية. حدث كل ذلك في غضون ستة أيام، فشكلت الهزيمة صدمة لأولئك الذين كانوا يثقون ثقة عمياء بالقيادة المصرية، إذ كانوا يأملون بأن تحرّر فلسطين على يد جمال عبد الناصر، بطل القومية العربية. وحينها فقط تذكّر هؤلاء بمرارة شديدة مقولة عبد الناصر في خطابه الذي ألقاه أمام المجلس التشريعي الفلسطيني قبل سنتين من الهزيمة، حين خاطبهم قائلاً: "إذا قلت لكم إنّ لدي مخططاً لتحرير فلسطين فأنا أكذب عليكم".[24]

بعد حرب سنة 1967، رأى الشيخ أحمد ياسين، كما أصبح يُعرف في ذلك الوقت، أنّ سكان غزة بدأوا يستفيقون بشكل تدريجي من الصدمة ليواجهوا الواقع الجديد؛ فقد سعى العديد منهم إلى توفير احتياجاتهم اليومية من خلال التعامل مع سلطات الاحتلال بدل مقاومتها، إذ شعروا أنه لم يكن لديهم أي خيار غير العودة إلى وظائفهم وقبض مرتباتهم من السلطات الجديدة. لم يكن الشيخ ياسين مرتاحاً لهذا الوضع، لكنه كان يتفهمه، فحسب تعبيره "كل الناس لم يكن لديها طعام، الناس بدأت يوماً بعد يوم تقبل بالواقع وتعود إلى أعمالها، ولو كان عندنا تنظيم جيد لكنا نظمنا أنفسنا

وقاطعنا الاحتلال لكن لم يكن هناك تنظيم، لم يكن هناك حماية للإنسان ولم يكن الناس يعرفون ماذا يمكنهم أن يفعلوا".[25]

حتى الشيخ نفسه اضطر إلى موازنة الأمور وحسم خياراته. فقبل احتلال غزة، كان يعمل في سلك التدريس، وحين أُعلن أنه سيُعاد فتح المدارس، وأن على الأساتذة العودة إلى العمل، أخذ يتساءل: "حينما أعود إلى التدريس هل أنا أخدم به اليهود أم سأخدم أبناء بلدي وشعبي؟"[26] هذه الهواجس التي ساورت الشيخ نبعت من واقع أن سلطة الاحتلال من المفترض أن تُقاطَع لا أن تُخدم.[27] بعد ذلك، استقر رأي الشيخ ياسين على أن ممارسته للتعليم ستكون خدمة لشعبه، وبالتالي قرّر هو وزملاؤه العودة إلى عملهم. ومن خلال وظيفته كمدرّس استطاع الشيخ أحمد ياسين أن يُباشر مشروع تغيير المجتمع الفلسطيني في غزة. وبالفعل فإن بعض تلامذته كبروا وتولوا قيادة الحركة الإسلامية في القطاع، فكانوا صنيعة الإحياء الإسلامي الذي يُطلق عليه أيضاً تعبير الصحوة الإسلامية، والذي استطاع أن يمسك بزمام المجتمع في بداية السبعينيات بقيادة الشيخ أحمد ياسين.

ومن المفارقات أن الاحتلال الإسرائيلي لقطاع غزة والضفة الغربية في نكسة سنة 1967، فتح نافذة فرصة أمام الشيخ ياسين الذي تمكّن للمرة الأولى من السفر عبر فلسطين التاريخية، ما مكّنه من إيصال حكمته ومعرفته إلى العرب المنسيّين في الأراضي المحتلة سنة 1948 حيث أقام الصهاينة دولتهم. كما أقام الشيخ جسور تواصل مع الفلسطينيين في الضفة الغربية، وسرعان ما امتدت جسور التواصل هذه إلى الفلسطينيين في الشتات. ولعل أعظم ما قام به الشيخ ياسين كان إقناع الشعب الفلسطيني، الذي تمكنت منه الشكوك، بأن حركة الإخوان المسلمين حركة جديرة بالاحترام، خصوصاً بعد أن تلطخت سمعة الحركة وتضررت مصداقيتها بشكل كبير بفعل حملات الدعاية الناصرية ضدها، والتي أدّت إلى تنفير أهل فلسطين من الحركة، حيث خاف الناس هناك تحت وطأة مزيج الدعاية والتخويف والاضطهاد، من أي ارتباط بالحركة.

وفي الضفة الغربية، كان نفور الناس من الإخوان أكبر مما كان عليه في قطاع غزة، فالضفة الغربية كانت جزءاً من الأردن، وبالتالي، فإنها خضعت بشكل مباشر للنظام الأردني الهاشمي منذ إقامة "دولة إسرائيل" سنة 1948. ويبدو أن الإخوان هناك دخلوا في اتّفاق غير معلن مع النظام الهاشمي، فمقابل تسوية وضعهم بصورة

قانونية، أسهموا في الحفاظ على استقرار الأردن عبر حماية المجتمع من تأثير التيارات غير المرغوب فيها التي كان يُرى أنها تهدد النظام وتُلحق الضرر به مثل الشيوعية المدعومة حينها من الاتحاد السوفييتي، والقومية العربية التي كانت تحظى بدعم الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وفيما كان الفلسطينيون ينظرون إلى النظام الناصري على أنه نظام قومي وطني مناوئ للاستعمار، كان الكثير منهم، في المقابل، يرى أن النظام الهاشمي نظام خاضع للولايات المتحدة الأمريكية ومتعاون مع "إسرائيل". ولذلك، فإنه على الرغم من أن الإخوان في الضفة الغربية كان لديهم مكاتب مسجلة تعمل في العلن، فإنهم كانوا يجدون صعوبة في اكتساب الدعم والتعاطف الشعبي، خصوصاً وأنه خلال الخمسينيات والستينيات كان يُنظر إلى الإخوان في الضفة على أنهم تنظيم نخبوي غير ديموقراطي، وهي صورة مختلفة تماماً عن صورة الإخوان في مصر خلال الفترة التأسيسية للحركة في الثلاثينيات والأربعينيات، حيث كان الإخوان حينها يشكلون قوة معارضة أساسية في وجه النظام المصري، تدافع عن الفقراء والمظلومين وتعارض النفوذ الأجنبي، وترفع شعار التحرر من الاستعمار.

في غزة، كان الشيخ أحمد ياسين من بين قلة من الشخصيات التي كانت تعلن انتماءها إلى تنظيم الإخوان على الملأ. ولهذا السبب فإنه حين كان يؤم المصلين في صلاة الجمعة في مسجد المعسكر الشمالي، كان الشُبّان يرتادون مساجد أخرى خوفاً من أن يُتهموا بالتعاطف معه ومع حركته. ومن أجل تحقيق ما يصبو إليه، كان الشيخ بحاجة إلى إعادة بناء الحركة التي جُرّت إلى العمل السري خلال سنوات الاضطهاد، ففي أعقاب محنة الإخوان مع النظام الناصري سنة 1954، كانت العديد من الشخصيات القيادية إما قابعة في السجون أو قد هربت إلى دول عربية أخرى لتتجنب المضايقات، ولتكون قادرة على عيش حياة كريمة ومريحة. اختار الشيخ أحمد ياسين عشر شخصيات من كوادر الإخوان في غزة والقدس، ودعاهم إلى اجتماع لمناقشة إعادة إطلاق الحركة. لم يكن جميع المدعوين متحمسين أو متفائلين؛ وبالفعل، بعد فترة وجيزة غادر بعضهم الأراضي الفلسطينية بحثاً عن عمل في مكان آخر من "الوطن العربي".

ومع ذلك أخذت العملية مجراها، انطلاقاً من المساجد؛ وكان معظم المنجذبين إلى نشاط الإخوان من الشبان اليافعين، الذين كان أكثرهم طلاباً في آخر سنوات مراهقتهم. كان هؤلاء يشكلون الجيل الذي شبّ بعد هزيمة 1967، وكان الكثير منهم قد فقد ثقته

بالناصرية وادعاءات القومية العربية، ولكن من ناحية أخرى، استمر آخرون ممن كانوا من أتباع عبد الناصر على حبهم له لدرجة العبادة في حياته وحتى بعد مماته. ولقرابة عقد من الزمن، ركزت حركة الإخوان التي أُعيد إحياؤها على يد الشيخ أحمد ياسين على ترسيخ القيم والأخلاقيات الإسلامية في قلوب الشباب وعقولهم. وعلى عكس الإدارة الناصرية السابقة لغزة، لم تعارض السلطات الإسرائيلية هذا النشاط الديني الذي بدا معتدلاً؛ إذ كان اهتمام "إسرائيل" متركزاً على تعقب عناصر المقاومة الوطنية الذين كانوا يشكلون خطراً مباشراً على سلطتها. ولم يكن لدى الشيخ أحمد ياسين ومجموعته التي ضمت شخصيات إخوانية مخضرمة مثل عبد الفتاح دخان وحسن شمعة، اللذين كانا مدرسين أيضاً، لا القدرة ولا النية في ذلك الوقت على الانخراط في المقاومة.

كان الشيخ أحمد ياسين يرى أن هناك الكثير مما ينبغي إنجازه قبل إطلاق المقاومة. ومن خلال محاضراته العامة والتعليم في المدارس، استطاع ياسين أن يجمع حوله نواة من الأتباع الملتزمين، كان معظمهم من طلاب الثانويات الذين جذبتهم الناصرية في البداية ثم نبذوها بعد حرب 1967، حيث كان ردّ فعلهم الأساسي تجاه الهزيمة التحول إلى الدين إذ بدا أنه البديل عن القومية التي ثبت فشلها. وجُلّ ما فعله الإخوان كان توفير الهيكل اللازم لهم. ضمت المجموعة الأولى التي التفَّت حول الشيخ ياسين: إبراهيم المقادمة، وإسماعيل أبو شنب، وعبد العزيز عودة، وفتحي الشقاقي، وموسى أبو مرزوق،[28] وقد انتقلوا جميعاً فيما بعد إلى مصر لمتابعة دراستهم فيها، ولعبوا دوراً فعّالاً في المجتمع الطلابي الفلسطيني الإسلامي هناك. وبدرجات متفاوتة أطلقوا أو أسهموا في إثارة الجدل حول أولويات الحركة الإسلامية فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية.

الرابط المصري:

في الفترة التي سبقت الاحتلال الإسرائيلي لقطاع غزة والضفة الغربية سنة 1967، كان الطلاب الفلسطينيون الذين أتموا دراستهم الثانوية بنجاح يسافرون إلى الخارج لمتابعة دراستهم، إذ لم يكن هناك جامعات محلية، ومعظم الذين حقَّقوا نتائج متفوقة في المدارس الثانوية كانوا يلتحقون بالجامعات المصرية لدراسة الطب

والهندسة وغيرها من المواد العلمية. كانت مصر تخصص مقاعد للطلاب الفلسطينيين في جامعاتها، فكانت تحدد حصصاً معينة لطلاب قطاع غزة وأخرى لطلاب الضفة الغربية، وثالثة للطلاب الذين يعيشون خارج فلسطين فيما أصبح يعرف بالشتات الفلسطيني.

لكن، بعد مرور بضع سنوات على الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة، عُلِّق قبول الطلاب الفلسطينيين في الجامعات المصرية لأن عودتهم إلى بلادهم لم تكون مضمونة؛ فقد كانت السلطات المصرية تخشى، كما الفلسطينيون أنفسهم، من أن تمنع "إسرائيل" الطلاب من العودة بعد إكمال تعليمهم. وفي العام الدراسي 1971/1970، فُتحت أبواب الجامعات المصرية مجدداً أمام الطلاب الفلسطينيين، بناء على اتفاق مع "إسرائيل" توسَّط فيه الصليب الأحمر الدولي International Red Cross، قبلت مصر بموجبه استقبال الطلاب الفلسطينيين شرط أن تسمح "إسرائيل" بعودتهم، وأن يضمن الصليب الأحمر عودتهم الآمنة إلى ديارهم خلال العطل الصيفية، وحين ينهون دراستهم. والظاهر أن "إسرائيل" شجَّعت هذا الترتيب، إذ عدَّته جزءاً مما أصبح يُعرف فيما بعد بسياسة "الجسور المفتوحة"، وهي خطة كانت تهدف إلى المحافظة على التدفق المراقب للناس والبضائع من الضفة الغربية إلى الأردن عبر نهر الأردن.[29] أما في ما يتعلق بقطاع غزة، فكانت الخطة ترمي إلى تخفيف الضغط الذي بدأ يتفاقم نتيجة عدم القدرة على استيعاب الآلاف من الطلاب الذين كانوا يتخرجون من الثانويات كل عام من دون أن تكون أمامهم فرصة لإكمال دراستهم أو دخول سوق العمل.[30] فهؤلاء الطلاب شكَّلوا خطراً حقيقياً على "إسرائيل" لأنهم كانوا مؤهلين لأن يكونوا مجندين محتملين في المقاومة.

فكَّر الشيخ أحمد ياسين في وقت ما بأن يُرسل بعض طلابه إلى مصر ليدرسوا في الكلّية الحربية المصرية، حيث كانت مصر تسمح لطلاب غزة بارتياد هذه الأكاديمية، ولكن مع تعليق قبول الطلاب الفلسطينيين؛ فإن الطلاب الذين أنهوا دراستهم الثانوية داخل مصر نفسها كان يسمح لهم دون غيرهم الاستفادة من هذا التسهيل. فاختار الشيخ أحمد ياسين شاباً يافعاً من الشبان المستقطبين إلى حركة الإخوان اسمه موسى أبو مرزوق ليترك قطاع غزة ويستقر في مصر قبل سنة من إنهاء دراسته الثانوية من أجل أن ينهي دراسته هناك، ويكون قادراً على دخول الكلّية الحربية المصرية. وسارت الأمور حسب الخطة إلى ما قبل إنهاء موسى أبو مرزوق دراسته

الثانوية في مصر بفترة وجيزة. ثم ما لبثت الحكومة المصرية أن أعلنت عن سن قوانين جديدة سمحت لطلاب غزة مرة أخرى بالسفر إلى مصر وقرَّرت إعطاءهم منحاً لمتابعة دراساتهم العليا، ولكن من ناحية أخرى، لم تعدْ تسمح بدخول الطلاب الفلسطينيين إلى الكلّية الحربية. وقيل لموسى أبو مرزوق إنه ربما ما زال بإمكانه أن ينضم إلى الأكاديمية إذا ما قدَّم أوراقه عن طريق منظمة التحرير الفلسطينية، فلم يحبذ هذا الخيار، وبدلاً عن ذلك قرّر دراسة الهندسة.[31]

نشأ أبو مرزوق وترعرع، كأقرانه من الإخوان، في مخيم للاجئين. وكان قد ولد سنة 1951 في خيمة من الخيم التي وفَّرتها الأمم المتحدة للاجئين في أحد مخيمات رفح. كان الولد السادس في العائلة من بين خمسة أشقاء وخمس شقيقات، وأول أفراد العائلة ولادة في المنفى. وبعد أن أعيد توحيد فلسطين بفعل التوسع الإسرائيلي بعد حرب 1967، زار أبو مرزوق يُبنا، القرية التي هُجر منها أهله سنة 1948، وفي القرية التي تقع في منتصف الطريق بين يافا وغزة، أراه شقيقه الأكبر محمود بقايا منزل العائلة الذي وُلد فيه خمسة من إخوانه الذين يكبرونه سناً. كان المبنى الذي كانت تشغله مدرسة القرية ما يزال قائماً، لكن استولت عليه جمعية خيرية يهودية تُقدم الخدمات للنساء اليهوديات المشردات. قبل "تطهير" يُبنا من سكانها الفلسطينيين، كان تعداد سكانها يبلغ 5 آلاف نسمة، إذ كانت واحدة من أكبر القرى في قضاء يافا.[32]

إبان وصوله إلى مصر، انضم أبو مرزوق إلى حلقة إخوانية فلسطينية صغيرة، لم تكن لها صلات رسمية بتنظيم الإخوان في مصر الذي كان في ذلك الوقت في سرية تامة بسبب الاضطهاد الناصري. حافظ أبو مرزوق على علاقته مع هذه الحلقة إلى أن غادر أعضاؤها الأساسيون مصر، بعد أن أنهوا دراستهم الجامعية. تزامن هذا الأمر مع وصول أول دفعة من طلاب الإخوان الفلسطينيين بعد استئناف قبول الطلاب الفلسطينيين في الجامعات المصرية. كانت هذه المجموعة بقيادة عبد العزيز عودة الذي كان واحداً من أقدم الإخوان وأحد المقربين من الشيخ أحمد ياسين. بداية، كان طلاب الإخوان مجرد أقلية صغيرة بالنسبة إلى تعداد الطلاب الفلسطينيين، فمعظم الطلاب الذين كانوا يأتون إلى مصر سنوياً ويتراوح عددهم ما بين 700–800 طالب، كانوا ينتمون أو على الأقل يتعاطفون مع المعسكر الوطني الذي تقوده منظمة التحرير الفلسطينية. إلا أن الميزان بدأ يتغير بشكل تدريجي؛ ومع تزايد عدد طلاب الإخوان، أصبحوا بحاجة إلى تنظيم، فشكّلوا لجنة لتتولى مسؤولية إدارة علاقات شؤون

الطلاب، وتتابع مع القيادة في غزة. فكان أبو مرزوق وعودة وطالب ثالث يُدعى علي شكشك من بين أعضاء هذه اللجنة.

وصل طلاب الإخوان الفلسطينيين إلى غزة في وقت كان يشهد أكثر فصول التاريخ الفلسطيني الحديث إيلاماً في الأردن، إذ تزامن وصولهم مع ما يسميه الفلسطينيون أيلول الأسود 1970. فما جرى من أحداث في ذلك الوقت كان حصيلة تراكم التوترات بين النظام الأردني ومنظمة التحرير الفلسطينية. فلأكثر من ثلاثة أعوام كانت منظمة التحرير الفلسطينية تُكثِّف من وجودها العسكري في الأردن، وكانت تستخدم الأراضي الأردنية لتشن هجمات على "إسرائيل". وفي ذلك الوقت كانت الضغوط على الملك حسين تتفاقم، ليس من قبل الولايات المتحدة و"إسرائيل" فحسب، بل من دوائر في النظام الأردني نفسه أيضاً، من أجل دفعه إلى القيام بعمل ما ضدّ منظمة التحرير التي كان يُنظر إليها على أنها تبني دولة داخل الدولة، وعلى أنها تشكل تهديداً للعرش الهاشمي. ووصلت الأمور إلى نقطة الغليان في 1970/9/6 ، حين قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، أحد الفصائل اليسارية المنتمية لمنظمة التحرير الفلسطينية، باختطاف أربع طائرات مدنية. وطار الخاطفون بثلاث من الطائرات المخطوفة إلى مهبط داوسون Dawson's Field المهجور الذي كان يقع في مكان قريب من العاصمة الأردنية عمّان، وكان تحت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية، وطار آخرون بالطائرة الرابعة إلى القاهرة. وفيما نجا طواقم وركاب الطائرات من دون أن يصابوا بأذى، قام خاطفو الطائرات بتفجيرها، فنفذت السلطات العسكرية الأردنية سلسلة من العمليات استمرت طوال أيلول/ سبتمبر 1970، من أجل طرد منظمة التحرير من الأردن، ما أدى إلى مقتل الآلاف من مقاومي المنظمة والقوات الأردنية والمدنيين، وما زال الخلاف قائماً حول العدد الحقيقي لضحايا أيلول الأسود. بداية، انسحبت قوى منظمة التحرير الفلسطينية إلى شمال الأردن، ولكن خلال عشرة أشهر، تمّ ترحيلهم بشكل كامل عن المملكة. وبما أنه لم يكن هناك أي مكان يلجأون إليه، فإنهم أعادوا تنظيم صفوفهم في لبنان. وقد أثبت هذا الفصل المكلِف والأسود من تاريخ الفلسطينيين، مرة أخرى، أن رؤية الشيخ أحمد ياسين كانت صائبة. فلطالما حذَّر الشيخ ياسين من عواقب جرّ نظام عربي ضعيف وغير راغب في المواجهة إلى حرب مع "إسرائيل"؛ ولا شكّ أن بقاء منظمة التحرير في الأردن، على الرغم من

التجاوزات التي كانت تقوم بها، وانتهاكها السيادة الأردنية، جرّ النظام الأردني إلى حالة صدام مع "إسرائيل".

سيطر المصير الذي لقيته منظمة التحرير في الأردن على النقاشات التي كانت تدور بين الطلاب الفلسطينيين في مصر. وعمَّقت أحداث أيلول الأسود الانقسام بين الطلاب الفلسطينيين الذين توزعوا على معسكرَين، الأول هو معسكر القوميين الذين كانوا ينتمون إلى منظمة التحرير الفلسطينية، والذين كانوا يُلقون باللائمة كلها على الأردن؛ والثاني هو معسكر الإسلاميين الذين كان معظمهم منتمياً إلى تنظيم الإخوان والذين كانوا أكثر عمقاً في تحليلهم لما جرى، بحيث وزعوا اللائمة بالتساوي على السلطات الأردنية ومنظمة التحرير الفلسطينية.[33] ويبدو أن الحدث أسهم في تعزيز قناعات الإسلاميين بأن الأولوية يجب أن تكون لإصلاح النظام السياسي العربي وتأسيس دولة إسلامية قوية ومستقلة، قادرة على إدارة دفّة حرب التحرير ضدّ الاحتلال الإسرائيلي.

في ذلك الوقت، كانت مصر أيضاً تعيش في أزمة، ففي 1970/9/23، توفي جمال عبد الناصر الذي كان يرى نفسه أباً للأمة، والذي استمر حكمه منذ قيامه وزملائه الضباط الأحرار بالإطاحة بالنظام الملكي سنة 1952 إلى يوم وفاته. وعلى الرغم من أن الهزيمة النكراء التي مُني بها في حرب 1967 أضعفته واضطرته إلى تقديم تنازلات للحركات الطلابية والعمالية، إلا أن أشكال المعارضة القوية الملموسة لم تظهر في مصر إلا بعد وفاته. وشهدت مرحلة ما بعد عبد الناصر تراجع القوى الشيوعية والعلمانية سريعاً أمام المد الإسلامي، وهو الأمر الذي تجلّى بشكل أساسي في حرم الجامعات، وقد عزّزت هذا الاتجاه السياسات التي تبعها رفيق عبد الناصر وخلفه أنور السادات. فبعد وصفه نفسه بأنه "الرئيس المؤمن" تجنّب السادات الاتجاه العلماني الاشتراكي القومي الذي كان يتبناه سلفه، ليرتمي بدل ذلك في رحاب الإسلام، فبنى صورته على أساسه وسعى عن طريقه إلى اكتساب شرعيته السياسية. وقد تزامن وصول طلاب الإخوان الفلسطينيين مع حدوث هذه التغييرات المهمة التي أدّت، من بين أمور أخرى، إلى رفع القيود عن العمل الطلابي.

كان العديد من الطلاب الإسلاميين متفوقين في دراستهم الثانوية وقد فازوا بمِنح تخوّلهم دراسة اختصاصات مرموقة مثل الطب والهندسة. وقد وصل عددهم

في إحدى المرات إلى ثلاثمئة طالب، موزعين على عدد من الجامعات المصرية. وتحت قيادة عبد العزيز عودة، نظَّم طلاب الإخوان أنفسهم في عدد من الحلقات، كان بعضها في القاهرة، فيما أنشئت حلقتان في المنصورة، وواحدة في شبين الكوم، وأخرى في الزقازيق، وأربعة في الإسكندرية. وفي خريف سنة 1971، انضم وافد جديد إلى طلاب الإخوان هو بشير نافع،[34] الذي وفد إلى مصر لدراسة الطب البيطري. وعلى الرغم من أنّ نافع وُلد وتربى في مخيم رفح للاجئين في غزة، إلا أنه كان قادماً من الأردن التي كان مقيماً فيها منذ ما بعد حرب 1967، حيث أرسلته عائلته إلى العاصمة الأردنية عمّان ليقيم مع عمه الذي كان طبيباً وكان يحمل الاسم نفسه. تابع نافع دراسته الثانوية في الأردن، وفي مصر انضم إلى تنظيم طلاب الإخوان الفلسطينيين، وأصبح شخصية بارزة فيه. وكانت حركة فتح قد استقطبت نافع في أثناء إقامته في الأردن، لكنه غيَّر اتجاهه حين وصل إلى مصر. فبعد أن فقد ثقته بمنظمة التحرير الفلسطينية بسبب أحداث أيلول الأسود، رأى نافع أن الإخوان يشكلون بديلاً أفضل عن المنظمة. والذي حفز نافع على الانضمام إلى حركة الإخوان كان كتاب معالم في الطريق الذي ألَّفه سيد قطب والذي لفت نظره إليه علي شكشك. بعد زيارته لأهله في رفح، عاد علي شكشك حاملاً معه بعض الهدايا التي أرسلها أهل بشير نافع لابنهم، وشكَّلت هذه المناسبة فرصة لخوض نقاش جدي بين الاثنين حول الإخوان ومستقبل القضية الفلسطينية. وفي ذلك الوقت، أهدى شكشك بشير نافع نسخة من كتاب سيد قطب الذي بَهَر نافع ودفعه إلى تغيير قناعاته.[35]

وفي ذلك الوقت، ظهرت في جامعات مصر مجموعات طلابية عرفت بالجماعات الإسلامية، وبعد عقد من الزمان، أصبح بعض أعضاء هذه الجماعات شخصيات قيادية في الجيل الثاني من إخوان مصر، ومن بين هؤلاء عبد المنعم أبو الفتوح، وعصام العريان اللذان بنيا جسور علاقات مع الإخوان الفلسطينيين منذ أن كانا مجرد ناشطَين إسلاميَّين، وذلك قبل أن يصبحا أعضاء في حركة الإخوان المصرية بوقت طويل. في تلك الفترة، كان عدد من الإخوان الأردنيين يتابعون دراساتهم العليا في جامعات مصر، وكان من بينهم عبد الله عزام، وفضل عباس، وأحمد نوفل، الذين كانوا أيضاً على اتصال مع تنظيم الإخوان في فلسطين. وشهدت تلك الفترة أيضاً بدء إطلاق سراح الإخوان من السجون والمعتقلات المصرية، وكان هناك بعض

الفلسطينيين من ضمن من أُطلق سراحهم، ومن أبرزهم عبد الرحمن بارود الذي سجن سنة 1965، حين كان طالباً في مرحلة الدكتوراه في مصر.[36]

وفي السنة الثالثة، شهدت مصر وصول شخصيات اشتهرت فيما بعد في الحركة الإسلامية الفلسطينية، مثل فتحي الشقاقي، الذي كان، كما عبد العزيز عودة، أحد المقربين من الشيخ أحمد ياسين، ومن قدامى الإخوان. بعد ذلك كان من ضمن الوافدين إبراهيم المقادمة وصلاح شحادة.[37] وبعد سنة فُصل عبد العزيز عودة من التنظيم بسبب ما قيل إنه سوء تصرف، وذلك بعد إجراء تحقيق داخلي وجلسات استماع ترأسها تلميذه إبراهيم المقادمة. وحين فُصل عودة من التنظيم، ترك بشير نافع الإخوان أيضاً، غالباً بسبب تعاطفه مع عودة، إلا أن الإخوان لم يقوموا أبداً بفصل نافع من التنظيم، ولا كانت لديهم نية للقيام بذلك، بل يؤكدون أنه ترك التنظيم باختياره.[38]

وكانت الحاجة إلى تحسين المنهجية التنظيمية والإدارية لحركة الإخوان إحدى القضايا التي شغلت الطلاب الإسلاميين في مصر في ذلك الوقت. فبعضهم كان يعارض الطريقة التي كانوا يخضعون فيها لنظام حلقات الإخوان المحلية حين يعودون لقضاء العطلة الصيفية، إذ كان يشعرون أن ما يطرح في تلك الحلقات المحلية لا يرقى إلى المستوى الفكري الذي وصل إليه الطلاب في مصر، وأنه لم يكن مناسباً، خصوصاً في ظلّ التحديات التي يواجهها الفلسطينيون تحت الاحتلال. وبرز أيضاً التساؤل عن حقيقة وضع تنظيم الطلاب في مصر، هل هو تنظيم مستقل أم أنه مجرد امتداد لتنظيم الإخوان في غزة. بالإضافة إلى ذلك، أحسّ الطلاب بحاجة ملحة إلى تحديد موقفهم من القضية الفلسطينية، التي يبدو أنها حتى ذلك الوقت لم تكن تشكل بعد مَعلَماً مهماً من معالم التفكير عند قيادات الإخوان في غزة. صيفاً بعد صيف، وفي الوقت الذي كان فيه الطلاب يعودون لقضاء العطلة الصيفية في ديارهم، كانوا يقضون ليالي دافئة على شاطئ البحر وهم يناقشون هذه القضايا. وخلال تلك الفترة، بدأ فريق لم يشعر بالراحة لمسار الأمور يميّز نفسه عن باقي المجموعة.

حينها برز فتحي الشقاقي، الذي كان أحد الإخوان المخلصين، كقائد لهذا الاتجاه الذي كان يستلهم أفكاره من بحث نشره طالب دراسات عليا سوري اسمه توفيق الطيب،[39] تحت عنوان "الحل الإسلامي ما بعد النكبتين"، وقد وصل هذا البحث

إلى طلاب مصر من ألمانيا التي كان الطيب يعدّ فيها رسالته لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة. ففي صفحاته الإحدى والعشرين ذات القطع الكبير، والتي تشمل الهوامش أيضاً، أحدث البحث الذي ألّفه الطيب ثورة في الفكر الإسلامي. يبدأ الكاتب مقدمة البحث بالتساؤل عن دلالة ما جرى في 1967/6/5 في تاريخ الإسلام. ففي ذلك التاريخ سلبت "إسرائيل" الضفة الغربية من الأردن، بما في ذلك شرقي القدس حيث يقع المسجد الأقصى. هذه الحرب الخاطفة التي جرت في ستة أيام أصابت القومية العربية في مقتل وحفزت الصحوة الإسلامية. ويرى الطيب أن خسارة القدس كانت نتيجة الهزيمة العربية، ويتساءل هل يمكن مساواة خسارة القدس سنة 1967 بسقوطها في يد الصليبيين سنة 1099، أو بسقوط قرطبة في يد الإسبان سنة 1237، أو بسقوط بغداد أمام الزحف المغولي سنة 1285؟ فيستنتج أنه على الرغم من جسامة هذه الأحداث التاريخية، فإنه لم يكن لها مغزى حضاري بعكس سقوط القدس سنة 1967 الذي مثّل ذروة الاعتداءات المستمرة على المسلمين والحضارة الإسلامية، ولذلك يجب النظر إلى هذا الحدث على أنه أكثر خطراً من سابقاته من الكوارث والأحداث الجسام. وحسب رأي الطيب فإن مسار الأحداث في 1967/6/5، "قد وضع أمتنا وعقيدتنا أمام قدرهما، فإما الحياة والاستمرار أو الموت والاندثار. إن الإسلام كعقيدة، والعرب كشعب يواجهان مصيرهما، والمحك هو فلسطين".[40] وخلص في نهاية بحثه إلى القول بأن فلسطين تشكل بالفعل أهم قضية إسلامية، وبالتالي يجب أن تكون أولوية الحركة الإسلامية الأولى، إذ يؤكد الكاتب أنه لا يمكن التفريق بين مصير الإسلام والحركة الإسلامية ومصير فلسطين.[41]

وفي ذلك الوقت، أخذت فكرة الدولة الإسلامية تسيطر بقوة على الفكر السياسي الإسلامي، حيث كانت إعادة إقامتها تعدّ أولوية أساسية. اشترك الإخوان مع غيرهم من التيارات الإسلامية في هذه القناعة إذ كانوا يرون أن فلسطين لا يمكن تحريرها من الاحتلال الصهيوني إلا عن طريق دولة إسلامية قوية، ولكنهم أصروا على أن بناء الدولة الإسلامية يعتمد على إيجاد مجتمع إسلامي قوي يجب أن يكون مؤلفاً من أفراد مسلمين، يقظين، متنورين، مدربين تدريباً جيداً، وجادين فيما يقومون به. وكان ينظر إلى خسارة فلسطين على أنها نتيجة من نتائج سقوط الخلافة الإسلامية، التي كانت بحد ذاتها ضحية انحطاط المسلمين والانحراف عن "سبيل الإسلام الحق". وبناء على ذلك، يجب استعادة الخلافة من أجل القضاء على حالة الضعف التي يعاني

منها الإسلام، ولكن ذلك لا يمكن تحقيقه إلا من خلال عملية إصلاحية متدرجة وطويلة المدى للفرد والعائلة والمجتمع ككل.[42]

والمفارقة أن هذا الطرح حول القضية الفلسطينية لم يكن الموقف الأصلي للإخوان المسلمين. فخلال الشهور التي سبقت إقامة "دولة إسرائيل" على أرض فلسطين سنة 1948، أرسل الإخوان مئات المتطوعين من مصر وسورية ولبنان واليمن والأردن وغيرها من البلدان إلى فلسطين ليتصدوا للقوات الصهيونية. أما هذا الاتجاه الجديد في التفكير فقد خرج من رحم الأزمة التي عاشها الإخوان في مختلف الدول العربية، وقد تبلور نتيجة الاضطهاد الذي عانوا منه على يد الأنظمة القومية العلمانية الاستبدادية، التي احتكرت السلطة لنفسها، وسعت إلى ترسيخ شرعيتها عن طريق تبني القضية الفلسطينية. ففي معظم فترة الخمسينيات والستينيات تنافس الإسلاميون والقوميون وتناحروا، وخلال ذلك كله، كانت فلسطين في قلب كل الجدل والنقاش الذي كان يدور بينهم. وكانت أشرس هذه النقاشات تدور في الجامعات بين الطلاب الذين كانوا ينتمون إلى التيارين المتصارعين. وكان النقاش يركز بشكل أساسي على أفضل الطرق التي يمكن من خلالها للعرب أن يقاوموا المشروع الصهيوني الذي اتفق الجميع على أنه يشكل أكبر المخاطر والتهديدات. كان الإسلاميون يصرون على أن تحرير فلسطين لن يحدث إلا حين يتم تبني الإسلام كمنهج حياة، ولذلك كانت مشاركتهم في أي من جهود التحرير التي يقوم بها أي نظام غير إسلامي أمراً غير وارد.[43] وكانوا يتساءلون تحديداً عن شرعية المشاركة في الجهاد تحت قيادة نظام علماني قومي مثل النظام الناصري في مصر أو البعثي في سورية، فهذه الأنظمة كان ينظر إليها على أنها تشن حرباً على الإسلام، وبالتالي تقدم خدمة للصهاينة أنفسهم. ولذلك لم يكن مفاجئاً أن يصر بعض الإخوان الذين شُجعوا على الانضمام إلى المقاومة الفلسطينية ضدّ الاحتلال الإسرائيلي في أواخر الستينيات، أن تكون لهم قواعد عسكرية منفصلة في وادي الأردن. لكن عملياً، ولأسباب سياسية ولوجستية، لم يكن أمامهم سوى القتال تحت مظلة فتح، الفصيل الأساسي في منظمة التحرير الفلسطينية.

واشتدت وطأة الخلافات في صفوف طلاب الإخوان الفلسطينيين في مصر حين أقنعت فتح بعضاً منهم بالانضمام إلى "الجناح الإسلامي" فيها في منتصف السبعينيات، الذي كان معروفاً باسم "فتح الإسلامي"، حيث وفد عضو في حركة فتح من عائلة الخزندار إلى مصر آتياً من بيروت ليتحدى موقف طلاب الإخوان انطلاقاً من

فلسفتهم هم، إذ طالما تغنوا بأنّ "الموت في سبيل الله أسمى أمانينا"،[44] وعندما سئلوا لماذا لا يشاركون في الصراع لتحقيق هذه الأمنية، كان جواب الإخوان أنهم لن يقاتلوا أبداً تحت راية قومية علمانية، كما كانوا يرون أن الهدف من وراء تأسيس جناح إسلامي في حركة فتح هو استيعاب الإسلاميين ودمجهم في الحركة وليس الاعتراف بهم ككيان مستقل.[45]

الرابط الكويتي:

في الفترة ذاتها، خضع الإخوان الفلسطينيون في الكويت لضغوط مماثلة. فقد شكل بروز حركة فتح وفصائل منظمة التحرير كمدافعين عن الحقوق الفلسطينية وقادة للصراع من أجل التحرير تحدياً خطيراً للإسلاميين الفلسطينيين؛ فمنذ نهاية الخمسينيات، استضافت الكويت، البلد الغني بالنفط، أعداداً متزايدة من الفلسطينيين الذين جذبهم، كغيرهم من العرب والآسيويين، ما كانت تشهده البلاد من تطور سريع ونمو اقتصادي. وبالمقارنة مع المملكة العربية السعودية، جارتها الأكبر والأكثر ثراء، كانت الكويت بلداً أكثر انفتاحاً، وأكثر راحة من الناحية المعيشية. وبعد حرب 1967، شهدت الكويت تدفق الاختصاصيين والعمال الفلسطينيين إليها، الذين كانوا في معظم الحالات يفدون من الضفة الغربية وقطاع غزة والأردن برفقة عائلاتهم. وكان بعض الاختصاصيين الفلسطينيين الذين وفدوا إلى الكويت في نهاية الخمسينيات أعضاء في حركة الإخوان، هرب بعضهم من الاضطهاد الناصري في غزة ومصر، وآخرون كانوا متخرجين حديثي السن أنهوا للتو دراستهم في الجامعات المصرية، وكانوا يبحثون عن فرصة عمل جيدة ليعيلوا أهلهم في فلسطين.

وفي نهاية الخمسينيات أيضاً كانت الكويت المكان الذي تشكلت فيه النواة التي انبثقت منها حركة فتح بعد أقل من عقد من الزمان.[46] وفي نهاية السبعينيات شكلت الكويت أيضاً ملاذاً آمناً لتأسيس الحركة الطلابية التابعة لجماعة الإخوان المسلمين التي لعبت دوراً محورياً في تمهيد الطريق أمام ولادة حركة حماس في نهاية الثمانينيات. كانت بداية السبعينيات سنوات الصحوة الإسلامية، حيث ازدادت في تلك الفترة أعداد الشبان والشابات الذين جذبتهم الأفكار الدينية. وفي الكويت، كما في دول أخرى، منحت هزيمة الناصرية زخماً جديداً لحركة الإخوان المسلمين، إذ رأت الحركة أن الشارع

العربي أصبح مستعداً للتشكيك في القومية العربية وادعاءاتها. واستفاد الإخوان في الكويت من قدوم عدد من العلماء والناشطين المصريين الذين أطلق سراحهم من السجون المصرية بعد وفاة الرئيس المصري جمال عبد الناصر سنة 1970. ومن بين هؤلاء العلماء حسن أيوب الذي جمع حوله مئات الأتباع وطلاب العلم ممن كانوا متعطشين للمعرفة وتعلم أركان العقيدة والعبادة والسلوك في الإسلام. فقد جذبت محاضراته الأسبوعية جماهير غفيرة، وكانت تسجل على أشرطة سمعية (كاسيت) لتوزَّع في الكويت وفي خارجها. كان الشيخ بحراً زاخراً من العلوم، إذ كان يحاضر في التاريخ، والعقيدة، والفقه، والفلسفة. وبعد ذلك بفترة قصيرة، شرع الشيخ حسن أيوب بنشر سلسلة كتب في الفقه والعقيدة الإسلامية، كما في القضايا المعاصرة ذات الطبيعة الاجتماعية السياسية.

وعلى الرغم من أن الشيخ حسن أيوب كان في الأصل عضواً في جماعة الإخوان المسلمين، ومع أنه سجن عدة سنوات في مصر لهذا السبب، إلا أنه الشيخ فيما يبدو لم يكن موافقاً على فكرة وجود تنظيم للإخوان في الكويت. كان يرى أن عصر الإخوان قد انتهى وأن الوقت قد حان لإعادة التفكير بطريقة جديدة للمضي قدماً، من خلال بناء إطار جديد. فاستقل هو وأتباعه بجماعتهم الخاصة، وأخذ يشجع الفلسطينيين منهم على الانخراط في جهود تحرير بلادهم. وقد سعت عدة منظمات في الكويت إلى الحصول على دعمه، فيما قامت وفود من فتح، وحتى من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، التنظيم الأكثر يسارية من فتح، بزيارته للبحث في سبل الاستفادة مما أبداه من تأييد للجهاد في فلسطين.

في ذلك الوقت كان الإخوان الفلسطينيون الذين يعيشون في الكويت وغيرها من البلدان مهتمين بشكل أساسي بتعليم وتدريب أعضاء التنظيم ومناصريه على كيفية تحصين أنفسهم مما كانوا يرون أنه أيديولوجيات وتيارات اجتماعية–سياسية غريبة وعدوانية؛ فكانت القضية الأهم بالنسبة إليهم هي كيفية إنقاذ الفرد والمجتمع والأسرة ككل من الهجمة الضارية للأفكار الغربية سواء كانت ليبرالية أم ماركسية. وكانوا يرون في عملية إعادة التأهيل الإسلامي للفرد المسلم، والأسرة المسلمة، وبالتالي المجتمع المسلم ككل، حلاً لجميع المشاكل، بما في ذلك احتلال فلسطين من قبل اليهود.[47]

والظاهر أن هناك عاملين أساسيين منعا الإخوان الفلسطينيين من الانخراط في المجهود الوطني من أجل فلسطين. فمن جهة كانوا يخشون من فقدان الهوية الإسلامية؛ خصوصاً وأنهم رأوا ذلك يحدث مع قادة حركة فتح الذين كانوا جميعاً، ما عدا ياسر عرفات، أعضاء في حركة الإخوان، ولكن انتهى بهم الأمر إلى التخلي عن أيديولوجيتهم الإسلامية لصالح القومية العلمانية. ومن جهة أخرى، فقد الإخوان ثقتهم، وربما فقدوا أيضاً قدرتهم على ترتيب الأولويات والتمييز بين القضايا المهمة والأقل أهمية. فالاضطهاد الذي عانوا منه وما مرّ به إخوانهم في مصر وغيرها من دول المنطقة، دفعهم إلى توجيه اهتمامهم إلى الداخل، إلى أنفسهم، وبالتالي أصبحوا غير قادرين على إدراك أهمية الشؤون الوطنية وإدراجها ضمن القضايا الإسلامية التي تستحق العناية والاهتمام. كان شغل الإخوان الشاغل في ذلك الوقت بناء الشخصية الإسلامية والحفاظ عليها والتعبير عنها كوسيلة لتحقيق المشروع الإسلامي،[48] وربما يكون تحول جماعة الإخوان المسلمين في معظم الدول العربية إلى حركة سرية قد ساعد في تعزيز هذا الاتجاه داخلها. وكان الإخوان يرون استحالة تحقيق أي شيء من دون إقامة حكم إسلامي؛ وهي فكرة لا تبعد كثيراً عن الطرح الذي يتبناه حزب التحرير.[49] وكانوا يستدلون بالإخفاقات السابقة، وخصوصاً تجربة إخوانهم في مصر التي سبقت صراعهم مع جمال عبد الناصر.

وللمفارقة فإن الإخوان المسلمين الذين أرسلوا مئات المتطوعين إلى فلسطين سنة 1948 لمنع سقوطها في يد الصهاينة، هم أنفسهم الذين بدأوا في أوائل السبعينيات يبررون العزوف عن الجهاد في فلسطين إذ كانوا يقولون إن ما حدث في فلسطين لم يكن سوى عارض من عوارض المرض الذي أصيبت به الأمة التي أضعفها غياب الوازع الديني، ويشرحون طرحهم هذا بالقول إن أفدح عواقب الابتعاد عن طريق الإسلام كان انهيار مشروع تعزيز الحضارة الإسلامية، الأمر الذي سمح لأعداء الإسلام باحتلال أراضي المسلمين، بما في ذلك فلسطين. وكانوا يرون أن الحل يكمن في العودة إلى الإسلام وتطبيق أحكامه، فحينها فقط تكون الأمة في وضع يمكنها من مواجهة الأعداء الخارجيين سواء في فلسطين أو غيرها.[50]

رفض الشيخ حسن أيوب هذا المنطق وسفَّه المدافعين عنه؛ واستطاع بفضل قدرته على تجميع العديد من الفلسطينيين حوله، أن يدق ناقوس الخطر لدى الإخوان الفلسطينيين، ودفعهم إلى إعادة التفكير في طروحاتهم واستراتيجياتهم ومنهجية

الحوار عندهم. وفي أثناء ذلك، اكتشفوا فداحة خطأ ما كانوا يدعون إليه، بل وخطره أيضاً. فظاهرة الصحوة الإسلامية كسرت احتكار الحركات الإسلامية للدعوة إلى الإسلام، وأعطت مجموعات أخرى مهتمة بالعمل الدعوي جرعات من الثقة بدَّدت حواجز الخوف والانزعاج التي كانت تحاصرها. فالأيام التي كان الإخوان وحدهم هم من يظهرون علامات الوعي الديني ولّت، وأخذ المجتمع ككل يتجه يوماً بعد يوم نحو التدين ومراعاة القيم الإسلامية، وغدت الأحكام الشرعية قوانين حاكمة بعد أن كانت استثناءات. ولذلك، رأى الإخوان أن تأخرهم في دعم قضية تحرير أرضهم من الاحتلال الإسرائيلي سيكلفهم مصداقيتهم، ويفرغ إنجازاتهم من قيمتها.

كان الطلاب والشباب بشكل عام ينتمون إلى الفئة التي تأثرت أكثر من غيرها بالصحوة الإسلامية، ففي أوساطهم كانت إمكانات الاستقطاب والتجنيد أعلى من غيرها من الأوساط، وعلى هذه الفئة دارت رحى أشرس المنافسات بين التيارات الأيديولوجية والتنظيمات السياسية. في السبعينيات بدأ الإخوان، كغيرهم من الجماعات، بالتركيز على طلاب المدارس الثانوية من أجل استقطابهم وتعليمهم كيفية تأسيس جمعيات طلابية إسلامية تجتذب بدورها الجمهور وتستقطب المزيد من الأفراد، وقد حقَّق الإخوان نجاحهم الأكبر في المساجد حيث كانوا يشكلون لجان المساجد التي كانت تبحث عن الشبان وتوفر لهم خدمات اجتماعية وتعليمية، وتعيد تأهيلهم. وشكَّل تأسيس فرع للطلاب في تنظيم الإخوان الفلسطينيين في الكويت في منتصف السبعينيات نقطة تحول تاريخية، وخطوة مدروسة التوقيت إذ تزامنت مع دخول أول مجموعة من الإخوان اليافعين، وهم الذين تمّ استقطابهم ولما يكونوا قد أتموا دراستهم الثانوية بعد. ومن ضمن هؤلاء اليافعين خالد مشعل الذي شغل فيما بعد منصب رئيس المكتب السياسي لحركة حماس (خلال الفترة 2005–2017).

ولد خالد مشعل سنة 1956 في قرية سلواد، قرب رام الله في الضفة الغربية، وعاش فيها 11 عاماً، حتى سنة 1967، حين أجبر مثل غيره من مئات الآلاف من الفلسطينيين على مغادرة منزله وقريته والاستقرار في الأردن. بعد ذلك بفترة وجيزة، ترك مشعل الأردن قاصداً الكويت حيث كان والده يعمل منذ ما قبل سنة 1967. وبعد إكمال دراسته في المرحلة المتوسطة سنة 1970، دخل مشعل ثانوية عبد الله السالم المرموقة التي كانت في الكويت وجهة التلامذة المتفوقين، وقد كانت هذه المدرسة في السبعينيات محط تركيز الأنشطة السياسية والأيديولوجية المكثفة. وفي عامه الثاني في ثانوية

عبد الله السالم، استقطبته حركة الإخوان المسلمين التي كرَّس نفسه لها بجدية. وبعد إنهاء دراسته الثانوية دخل جامعة الكويت وحصل منها على درجة البكالوريوس في الفيزياء.

كان هناك فرع ناشط للاتحاد العام لطلبة فلسطين في جامعة الكويت؛ وكان هذا الاتحاد خاضعاً لسلطة حركة فتح المطلقة. وعلى الرغم من أن الإسلاميين كانوا يتحاشون أساساً الانضمام إلى هذا الاتحاد، إلّا أنهم قرروا سنة 1977 أن يشاركوا في المنافسة الانتخابية على قيادته، وتزامن ذلك مع زيارة السادات إلى القدس ليطالب بوضع حدٍّ للصراع الفلسطيني. وشكَّل خالد مشعل وزملاؤه لائحة الحق، التي أطلقت حملة انتخابية ركَّزت بشكل أساسي على قضيتين: الحرب على لبنان وتأثيرها على القضية الفلسطينية، وزيارة السادات إلى القدس وتداعياتها.

وتبين فيما بعد استحالة العمل من داخل الاتحاد العام لطلبة فلسطين، حيث شعر الطلاب الإسلاميون أنّ العراقيل توضع في وجههم بشكل دائم، وتوصلوا إلى قناعة مفادها أنه لن يُسمح لهم أبداً أن يضعوا أفكارهم قيد التطبيق. ومع حلول سنة 1980، بعد سنتين من تخرج خالد مشعل من جامعة الكويت، قرر من بقي وراءه من إخوانه الطلبة الذين لم يتخرجوا بعد، أن يتركوا الاتحاد العام لطلبة فلسطين ويؤسسوا رابطتهم الخاصة داخل الجامعة، فكانت الرابطة الإسلامية لطلبة فلسطين في الكويت، وهي واحدة من عدة روابط طلابية أسَّسها الإخوان الفلسطينيون في أنحاء العالم، لتُشكل أرضية يعمل من خلالها الطلبة الفلسطينيون الذين لا يودون الانضمام إلى الاتحاد العام لطلبة فلسطين، الذي تسيطر عليه منظمة التحرير الفلسطينية. ومن بين أكثر هذه الروابط فعالية تلك التي أُسِّست في بداية الثمانينيات في الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة، وفي عدد من الدول الأوروبية الأخرى التي كانت تعجُّ بالطلاب الفلسطينيين الذين يُتابعون دراستهم فيها. فالعديد من هؤلاء الطلاب فقد ثقته بمنظمة التحرير الفلسطينية، وخاب رجاؤهم بقيادتها التي بدا أنّ لديها استعداداً لقبول ما هو أقل بكثير من الحلم الذي نشأ عليه شباب فلسطين: أي تحرير فلسطين من النهر إلى البحر، وعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى أرضهم وديارهم.

هوامش

[1] صدرت الدراسة للمرة الأولى سنة 2000، عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية في واشنطن العاصمة. وهذه نسخة محدثة بعض الشيء عن مؤلفه، **حماس: الفكر والممارسة السياسية** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1996).

[2] Matthew Levitt, *Hamas: Politics, Charity, and Terrorism in the Service of Jihad* (London: Yale University Press, 2006).

[3] Steven Erlanger, "Hamas as a terror 'apparatus'," The International Herald Tribune newspaper, Paris, 23/6/2006.

[4] Barry Rubin, "A review that speaks volumes," *The Jerusalem Post* newspaper, 26/6/2006.

[5] من أجمل ما ورد في هذا المجال ما ذكره الدكتور سعود المولى في كتابه: سعود المولى، **الإخوان المسلمون، من حسن البنا إلى الوسط** (بيروت: العلا للطباعة والنشر والتوزيع، 2000).

[6] عرضت قناة الجزيرة الفضائية شهادة الشيخ أحمد ياسين في الفترة من 4/17 إلى 1999/6/5. تمّ تسجيل المقابلات مع الشيخ خلال زيارته لقطر في ربيع سنة 1998. يُذكر أن مقدم البرامج أحمد منصور سجل شهادة الشيخ ياسين من خلال سلسلة من ثماني حلقات لبرنامجه الأسبوعي "شاهد على العصر". النص الكامل متاح أيضاً في كتاب: أحمد منصور(محرر)، **الشيخ أحمد ياسين، شاهد على عصر الانتفاضة** (بيروت: الدار العربية للعلوم ودار ابن حزم، 2003).

[7] تمّ بالفعل اغتيال القادة الثلاثة الأوائل المذكورين على يد الإسرائيليين. كان صلاح شحادة أول من تمت تصفيته في الساعات الأولى من يوم 2002/7/23؛ حيث أسقطت طائرة إسرائيلية من طراز أف 16 أو F16 قنبلة تزن 1,000 رطل (454 كغ) على المبنى السكني الذي كان يعيش فيه في حي الدرج المكتظ بالسكان، ما أدى إلى مقتله هو وزوجته، والعديد من الآخرين. أما الشيخ أحمد ياسين، فقد اغتيل في 2004/3/22 في أثناء خروجه من أحد المساجد بعد صلاة الفجر، عندما أطلقت مروحية أباتشي Apache عدة صواريخ، ما أدى إلى مقتله وحراسه وعدد من المصلين. في حين اغتيل الدكتور عبد العزيز الرنتيسي في 2004/4/17، عندما أطلقت المروحيات الإسرائيلية صواريخ على السيارة التي كان يستقلها، ما أدى إلى مقتله وثلاثة من رفاقه. الأمر اللافت في هذه المجموعة المكونة من سبعة أفراد هو أنهم كانوا جميعاً لاجئين، ولدوا إما قبل النكبة أو بعدها. فحتى حرب 1967 التي أفضت إلى الاحتلال الإسرائيلي لكل فلسطين، كانت قيادات الإخوان من العائلات التقليدية الغنية والمؤثرة في القطاع. إلا أنه، بعد ذلك، أصبحت القيادة تأتي دائماً تقريباً من اللاجئين.

[8] في أعقاب إنشاء "دولة إسرائيل" على ما يقرب من ثلثي مساحة الانتداب البريطاني في فلسطين سنة 1948، أصبحت الضفة الغربية وقطاع غزة وحدات جغرافية منفصلة. وضعت الهدنة التي تمّ التوصل إليها في سنة 1949 بين الدولة الإسرائيلية المؤسسة حديثاً والدول العربية المجاورة منطقة الضفة الغربية، بما في ذلك شرقي القدس، تحت الحكم الأردني الهاشمي، بينما تمّ وضع قطاع غزة تحت الإدارة العسكرية المصرية. وفي نهاية المطاف، تمّ ضمّ الضفة الغربية إلى الأردن في سنة 1950، وتمّ توسيع الجنسية الأردنية لتشمل سكانها الفلسطينيين.

[9] طوال سيطرة مصر على قطاع غزة، عانى الناشطون السياسيون الفلسطينيون ما عاناه رفاقهم في مصر. وفي منتصف الستينيات، عندما قام جمال عبد الناصر بقمع الإخوان في مصر وإعدام العديد من قادتهم، بما في ذلك سيد قطب، شهدت غزة قمعاً شديداً للأنشطة الإسلامية واعتقال الأفراد المشتبه بانتمائهم للإخوان. وعادة ما كان هؤلاء المشتبه بهم يمنعون من دخول مصر. وفي هذا الإطار، اعتقل الشيخ أحمد ياسين لمدة شهر اعتباراً من 1965/12/18، ثم منع بعدها من دخول مصر، وحرم من أداء امتحاناته في جامعة عين شمس بالقاهرة، حيث كان طالباً خارجياً يدرس الأدب الإنجليزي.

[10] عندما أقيمت "إسرائيل" في سنة 1948، تمّ طرد ثلثي الفلسطينيين من منازلهم ويعيشون منذ ذلك الحين في مخيمات اللاجئين أو في أماكن أخرى في "الشتات". ومع ذلك، بقي منهم نحو 156 ألف فلسطيني، في ما أصبح يعرف لاحقاً باسم "دولة إسرائيل"، وهم يشكلون نحو 17% من إجمالي سكان "الدولة" المؤسسة حديثاً. بالنسبة إلى العرب، يُعرف هؤلاء الفلسطينيون، الذين ارتفع عددهم في سنة 2002 إلى نحو 1.23 مليون، باسم "فلسطينيي 1948" بينما يسميهم الإسرائيليون "عرب إسرائيل".

[11] كان لمعركة الكرامة، التي وقعت في وادي الأردن، في 1968/3/21، الدور الأساسي في إعادة إذكاء الزخم الوطني الفلسطيني من جديد، وأعادت الثقة والأمل للفلسطينيين في جميع أنحاء العالم. وقد كان يروّج إلى ما تحقق فيها على أنه نصر معجزة، حققه مقاتلو المقاومة الفلسطينية سيئو التدريب والتجهيز ضدّ جيش "إسرائيل" القوي. لكن تبين لاحقاً أن الفضل في النصر على الإسرائيليين يعود إلى وحدات الجيش الأردني بقيادة مشهور حديثة الجازي، التي تجاهلت أوامر القصر بوقف إطلاق النار على الإسرائيليين المتقدمين. وبدلاً من ذلك، انتهزت هذه القوات الفرصة للانتقام من إذلال الجيش العربي الأردني سنة 1967. وأدخلت الوحدات تحت قيادة الجازي البهجة إلى قلوب ملايين العرب. وللمرة الأولى منذ بدء الصراع مع الصهاينة على فلسطين، تقدمت القوات العربية بدلاً من التراجع، وهاجمت الإسرائيليين، ودمرت العديد من مركباتهم المدرعة وأجبرتهم على التراجع. لقد اعتقد الفلسطينيون، وربما ما يزال البعض يعيش هذا الوهم، أن فتح بقيادة ياسر عرفات هي التي حققت النصر. في الواقع، كان الإنجاز الرئيسي لياسر عرفات في ذلك اليوم هو إعلان النصر لنفسه ولرفاقه. ونتيجة لذلك، تمّ منحه الأوسمة من قبل عدد من الزعماء العرب، مثل العاهل السعودي الملك فيصل، والرئيس المصري جمال عبد الناصر، والرئيس الجزائري هواري بومدين. وبرز كزعيم لفتح وتولى في نهاية المطاف رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية. ولمزيد من التفاصيل راجع نص الشهادات التي أدلى بها مشهور حديثة الجازي ثم أحمد جبريل لبرنامج "شاهد على العصر" على قناة الجزيرة. للاطلاع على النصوص الكاملة، انظر: موقع الجزيرة.نت، في:www.aljazeera.net

[12] في 1977/5/17، حقق حزب الليكود، تحت قيادة مناحيم بيجن، أول انتصار انتخابي له. شكل هذا الحدث علامة بارزة في تاريخ "إسرائيل" وأنهى ثلاثة عقود من حكم حزب العمل. وحكم الليكود لمدة 15 عاماً حتى خروجه من السلطة في حزيران/ يونيو 1992.

[13] إلى جانب الإخوان، كان هناك بعض المنظمات الإسلامية الأخرى الناشطة في ذلك الوقت. ومن بين هذه الجماعات جماعة التبليغ، وهي جماعة غير سياسية نشأت في الهند، وحزب التحرير الإسلامي، وهي جماعة نشأت في فلسطين في الخمسينيات، وتحمل هدفاً سياسياً يتمثل في استعادة الخلافة الإسلامية. وكان هناك أيضاً العديد من الاتجاهات السلفية، المرتبطة بشكل رئيسي، ولكن ليس حصرياً، بالمملكة العربية السعودية، وكانت تركز في المقام الأول على الجوانب العقدية والسلوكية للإسلام ولم تُعر اهتماماً كبيراً للسياسة.

[14] ولد الشيخ عزّ الدين القسام سنة 1871 في قرية جبلة السورية، الواقعة قرب مدينة اللاذقية الساحلية. سافر في شبابه إلى مصر حيث درس على الشيخ محمد عبده. شارك في وطنه سورية، في أثناء عمله مدرساً في مسجد السلطان إبراهيم، في ثورة 1920 ضدّ الاحتلال الفرنسي. حكم عليه بالإعدام ولكنه فرّ إلى حيفا سنة 1922، وهناك ترأس الفرع المحلي لمنظمة الشباب المسلمين حتى سنة 1935. استشهد في تشرين الثاني/ نوفمبر 1935 في أثناء قيادته لهجوم مسلح على القوات البريطانية في فلسطين. ومنذ ذلك الحين، أصبح رمزاً للنضال ضدّ الاستعمار في أنحاء المنطقة كافة.

[15] يؤكد الدكتور سلمان أبو ستة أن "إسرائيل" هجّرت 531 بلدة وقرية فلسطينية في سنة 1948، انظر:

Salman Abu Sitta, *The Palestinian Nakba 1948: The Register of Depopulated Localities in Palestine* (London: The Palestinian Return Centre, 2000).

[16] انظر: أحمد منصور، **الشيخ أحمد ياسين، شاهد على عصر الانتفاضة**.

[17] في وقت مبكر من صباح يوم 1948/4/9، هاجمت قوات كوماندوز Commando من منظمة الإرجون Irgun، برئاسة مناحيم بيجن الذي أصبح رئيس وزراء "إسرائيل" في سنة 1977، وعصابة شتيرن Stern، برئاسة رئيس الوزراء الإسرائيلي المستقبلي إسحق شامير Yitzhak Shamir، قرية دير ياسين التي كان يقطنها نحو 750 فلسطينياً. تمّ قتل أكثر من 100 رجل وامرأة وطفل بشكل منهجي. ومع ذلك، لطالما ادعى المدافعون الإسرائيليون دائماً أن العرب بالغوا في المجازر. وكانت الدوايمة مسرحاً لمذبحة أخرى لم يرتكبها هذه المرة رجال الميليشيات بل ارتكبها الجيش الإسرائيلي بعد تأسيس "الدولة". وفي 1948/10/29، وكجزء من عملية للجيش الإسرائيلي تسمى يوآف Yoav، قُتل ما بين 80 و100 فلسطيني، بينهم نساء وأطفال، على يد ما وصف في ذلك الوقت بـ "الموجة الأولى من الغزاة". ووصفت صحيفة "الهامشمار Al Ha-Mishmar" الإسرائيلية اليومية ما حدث قائلة: "لقد قتلوا الأطفال بكسر رؤوسهم بالعصي. لم يكن هناك منزل من دون قتلى... أمر أحد القادة خبير المتفجرات بوضع امرأتين عجوزين في منزل وتفجير المنزل بهما. وتفاخر أحد الجنود بأنه اغتصب امرأة ثم أطلق عليها النار..." وصف آخر للمذبحة قدّمه مختار (رئيس) القرية السابق، في مقابلة أجرتها معه صحيفة "حداشوت Hadashot" اليومية الإسرائيلية في سنة 1948. "هرب الناس، وأطلقوا النار على كل من رأوه في المنازل وقتلوه. كما قتلوا الناس في الشوارع. وجاءوا وفجروا منزلي بحضور شهود عيان". وتجمع نحو 75 من كبار السن في المسجد للصلاة، فقُتلوا جميعاً. وكان هناك نحو 35 عائلة مختبئة في كهوف خارج الدوايمة، بما في ذلك بعض العائلات من قرية القبيبة المحتلة سابقاً. وعندما اكتشفتهم القوات الإسرائيلية، أمروهم بالخروج والوقوف في الصف والبدء في المشي. وبينما بدأوا بالسير، أطلقت عليهم الرشاشات من الجانبين. الوحدة المسؤولة عن المذبحة كانت الكتيبة الـ 89، التي كانت جزءاً من اللواء الثامن، بقيادة الجنرال إسحق سديه Yitzhak Sadeh، مؤسس البلماخ Palmach. وفي كانون الأول/ ديسمبر 1948، في أثناء مناقشة لجنة وزارية إسرائيلية للأعمال الوحشية التي ارتكبت، أثيرت قضية الدوايمة. ولعل وزير الزراعة أهارون زيسلنغ Aharon Zisling كان يرد على رسالة تلقاها حول المذبحة عندما قال: "هذا أمر يحدد طبيعة الأمة... اليهود أيضاً ارتكبوا أعمالاً نازية". وبالرغم من أنه اشتكى من أن التحقيق لا يسير كما ينبغي، إلا أنه اتفق مع وزراء آخرين على أنه لا ينبغي لـ"إسرائيل" أن تعترف بأي شيء ظاهرياً، من أجل الحفاظ على صورتها.

See Walid Khalidi, *All That Remains: The Palestinian Villages Occupied and Depopulated by Israel in 1948* (Washington, D.C., Institute for Palestine Studies, 1992).

[18] عندما غادر آخر جندي بريطاني فلسطين في 1948/5/15، أعلن ديفيد بن جوريون David Ben-Gurion عن إنشاء دولة يهودية مستقلة، تعرف باسم "إسرائيل"، على ثلثي أرض فلسطين الانتدابية. رداً على ذلك، غزت فلسطين جيوش من خمس دول عربية، هي مصر والأردن ولبنان وسورية والعراق، ظاهرياً كان الهدف مساعدة الفلسطينيين ومنع الصهاينة من تحويل فلسطين إلى "إسرائيل"، ولكن في الواقع لم يكونوا قادرين ولا جادين؛ وأصبح أكثر من 750 ألف فلسطيني بلا مأوى.

[19] انظر: أحمد منصور، **الشيخ أحمد ياسين، شاهد على عصر الانتفاضة**.

[20] كان هذا النزيف في صفوف الأعضاء هو ما دفع أعضاء الإخوان الفلسطينيين البارزين خارج فلسطين إلى تنظيم اجتماع في القاهرة سنة 1960 لإنشاء منظمة إخوانية فلسطينية سرية، تضمّ أعضاء فلسطينيين غير منتسبين إلى منظمة الإخوان الأردنية. وكان الهدف من المبادرة حماية الحركة من خطر تعدي فتح على كوادرها. وحضر الاجتماع الذي عقد في شقة مطلة على نهر النيل 12 طالباً وأحد كبار أعضاء الإخوان الفلسطينيين الذين قدموا من منطقة الخليج حيث كان يقيم. وانضمّ هاني بسيسو، الذي كان يعمل في مدينة الزبير في العراق، إلى المجموعة وطُلب منه الذهاب إلى القاهرة لرئاسة التنظيم الجديد. وفي القاهرة، ألقت السلطات المصرية القبض على بسيسو كجزء من الحملة ضدّ الإخوان المصريين سنة 1965، وسرعان ما توفي في السجن بعد ذلك بوقت قصير. انظر: مقابلة مع إبراهيم غوشة، عمّان، 2003/8/17. كان غوشة أحد الطلاب الـ 12 الذين حضروا الاجتماع التأسيسي في القاهرة.

[21] كان كامل الشريف عضواً قيادياً في الإخوان حتى منتصف الخمسينيات ثم انضمّ إلى النظام الهاشمي سفيراً ثم وزيراً. وصل إلى الكويت سنة 1965 حاملاً عرضاً لقيادة الإخوان الفلسطينيين، حيث التقى بحسن عبد الحميد، وعمر أبو جبارة، ومحمد صيام، وإبراهيم غوشة، واقترح دمج الإخوان مع فتح. وبعد المداولة، ردّ الإخوان الفلسطينيون بقبول مشروط للعرض. وطالبوا حركة فتح بالالتزام بالفكر الإسلامي والتمسك بالقيم الإسلامية. وقيل لهم إن فتح لا تستطيع، ولن تقدم، مثل هذا الالتزام. انظر: مقابلة مع إبراهيم غوشة، عمّان، 2003/8/17.

[22] انظر: أحمد منصور، **الشيخ أحمد ياسين، شاهد على عصر الانتفاضة**. ويروي أحمد ياسين أن صديقاً له كان يسكن في الجوار، اسمه محمد الأعرج، وكان ضابطاً فلسطينياً في الجيش العراقي، جاء لدعوته للانضمام إلى فتح. وبعد نقاش قال ياسين للأعرج: "أنا أعترض وأرفض العمل بهذا الشكل لأنه سوف يورط الدول العربية، وهي ليست قادرة على المقاومة في هذه المرحلة". فردّ الأعرج عليه قائلاً: "ادع يا رب". فردّ ياسين: "لست مستعداً أن أسبب ضرراً لأي قطر عربي جديد لصالح إسرائيل، وهذه الطريقة لن تحرر الأرض التي استولت عليها إسرائيل".

[23] كان من بين مؤسسي فتح من الإخوان السابقين خليل الوزير (أبو جهاد)، وعبد الفتاح الحمود، ويوسف عميرة، وسليمان حمد. وسرعان ما انضمّ إليهم أعضاء آخرون من الإخوان، بمن فيهم محمد يوسف النجار، وكمال عدوان، وسليم الزعنون، وفتحي البلعاوي، ورفيق النتشة، وصلاح خلف.

[24] انظر: أحمد منصور، **الشيخ أحمد ياسين، شاهد على عصر الانتفاضة**.

[25] المرجع نفسه.

[26] المرجع نفسه.

[27] وفي أعقاب حرب حزيران/ يونيو 1967، أنشأت "إسرائيل" إدارة عسكرية لحكم السكان الفلسطينيين في الضفة الغربية المحتلة وقطاع غزة. وبموجب هذا الترتيب، تمّ تنظيم جميع جوانب حياة الفلسطينيين، وغالباً ما كانت تقيّد بشدة.

[28] طرد كل من عبد العزيز عودة وفتحي الشقاقي، مواليد سنة 1951، فيما بعد من تنظيم الإخوان في أثناء دراستهما في مصر؛ الأول في سنة 1974 بتهمة سوء السلوك، والثاني في سنة 1979 بعد نشره كتيباً يشيد بتجربة الثورة الإيرانية، ودعوته لاستلهام تجربتها. وفي وقت لاحق، وحَّد الرجلان جهودهما لتشكيل حركة الجهاد الإسلامي الفلسطينية. اغتيل الشقاقي على يد فرقة اغتيال إسرائيلية في مالطا في 1995/10/26؛ فيما أصبح إبراهيم المقادمة، مواليد سنة 1952، وإسماعيل أبو شنب، مواليد سنة 1950، من الشخصيات القيادية في حماس في غزة وتمّ اغتيالهما على يد الإسرائيليين، الأول في 2003/3/8 والثاني في 2003/8/21. أما موسى أبو مرزوق فقد أصبح أول رئيس للمكتب السياسي لحماس، ثم نائباً للرئيس منذ سنة 1997 حتى سنة 2006.

[29] اقترح موشيه ديان Moshe Dayan، وزير الدفاع الإسرائيلي، سياسة "الجسور المفتوحة" في أعقاب احتلال القدس والضفة الغربية وقطاع غزة سنة 1967. كان الهدف هو السماح بفتح طريق بين الأراضي المحتلة حديثاً في "إسرائيل" والعالم العربي عبر الأردن. ووفقاً لمقال كتبه تي. كيو. شانغ T. Q. Shang في مجلة ستانفورد للعلاقات الدولية Stanford Journal of International Relations، كانت استراتيجية ديان تتمثل في توظيف أعداد كبيرة من اللاجئين الفلسطينيين المقيمين في مخيمات في الضفة الغربية وقطاع غزة. وافترض ديان أن ارتفاع مستويات المعيشة من شأنه أن يعوض فقدان الحريات السياسية الذي عانى منه الفلسطينيون تحت الحكم الإسرائيلي الدائم، في حين يمكّن الاقتصاد الإسرائيلي من استغلال مخزون كبير من العمالة الرخيصة. وبهذه الطريقة، كان ديان يأمل في إنشاء أساس اقتصادي للانخراط الفلسطيني في الواقع القائم. انظر: http://www.stanford.edu/group/sjir/3.1.03_shang.html
إلا أن منظمة التحرير الفلسطينية دانت هذه السياسة، وشككت أنها تهدف أساساً إلى تطبيع احتلال الأراضي وتمهيد الطريق لضمّها. ورأى القوميون الفلسطينيون أن هذه السياسة ما هي إلا صمام أمان للعاطلين عن العمل والمشردين، ما أدى بشكل فعال إلى تقليل مقاومة السكان ضدّ الاحتلال الإسرائيلي. ومع إعادة فتح الجسريْن عبر نهر الأردن، جسر داميا وجسر اللنبي أو الحسين، تمّ تطبيق هذه السياسة لأكثر من 20 عاماً بهدف مزدوج يتمثل في السماح بما يلي:

1. تصدير فائض المنتجات الزراعية الفلسطينية إلى الأسواق العربية، والمنافسة المحتملة للمنتجات الإسرائيلية.
2. مرور العمال الفلسطينيين، خصوصاً إلى دول الخليج، من أجل السماح بتدفق رأس المال إلى الأراضي المحتلة التي أصبحت سوقاً أساسية للبضائع الإسرائيلية. ومن خلال هذه السياسة، أعادت السلطات الإسرائيلية أيضاً تشجيع هجرة الفلسطينيين. فلم يكن يُسمح للفلسطينيين الذين تتراوح أعمارهم بين 20–40 عاماً والذين يعبرون الجسور بالعودة لمدة 9 أشهر وكان يمكن أن يفقدوا حقهم في الإقامة إذا لم يعودوا في غضون 3 سنوات. وقد أدى تعزيز عمليات التفتيش على الحدود وفرض الحصار الداخلي على مناطق الحكم الذاتي التي أنشأتها اتفاقيات أوسلو 1994–1999 إلى انخفاض كبير في تحركات الناس وأضعف سياسة "الجسور المفتوحة". انظر:

Site of The European Institute for Research on Mediterranean and Euro-Arab Cooperation, November 2001, www.medea.be

[30] مقابلة أجراها الكاتب مع بشير نافع، لندن، 2003/9/15.

[31] مقابلة أجراها الكاتب مع موسى أبو مرزوق، دمشق، 2004/7/17.

[32] المرجع نفسه.

[33] لعب إخوان الأردن دوراً نشطاً في حرب العصابات التي اندلعت ضدّ "إسرائيل" انطلاقاً من الأراضي الأردنية. ومع ذلك، عندما رأوا صداماً وشيكاً بين منظمة التحرير الفلسطينية والنظام الأردني، قرروا حلّ فدائييهم وإغلاق قواعدهم المعروفة في ذلك الوقت باسم قواعد الشيوخ قبل 8 أشهر من اندلاع الحرب الأهلية المأساوية في أيلول/ سبتمبر 1970. ومن بين أعضاء الإخوان البارزين الذين عملوا خارج هذه القواعد عبد الله عزام وأحمد نوفل، وقد غادرا فيما بعد إلى مصر لمتابعة تعليمهما العالي. وفي الثمانينيات، استقر عبد الله عزام في بيشاور كجزء من الجهود الإسلامية لمساعدة القضية الأفغانية، واغتيل في ظروف غامضة مع اثنين من أبنائه في سنة 1989.

[34] بشير نافع هو أكاديمي بريطاني. وفي شباط/ فبراير 2003، اتهمته السلطات الأمريكية بأنه زعيم حركة الجهاد الإسلامي في المملكة المتحدة. في الواقع، لم يكن نافع يوماً عضواً في حركة الجهاد الإسلامي، بل إنه عارض بشدة فكرة إنشاء مثل هذه المنظمة. وكان فتحي الشقاقي، مؤسس حركة الجهاد الإسلامي، وأمينها العام الراحل وزميله في الدراسة في القاهرة في أوائل السبعينيات، قد ادعى أن نافع كان على صلة بتنظيمه.

انظر: مقابلة أجراها الكاتب مع بشير نافع، لندن، 2003/9/15.

[35] انضم سيد قطب (1906–1966)، الذي حكم عليه بالسجن لمدة 10 سنوات سنة 1954 وأُعدم سنة 1966، إلى جماعة الإخوان المسلمين في مصر بعد اغتيال مؤسسها حسن البنا سنة 1949. وسرعان ما أصبح المنظر الأيديولوجي البارز للجماعة؛ وملهماً لأعضائها لمدة لا تقل عن 30 عاماً من منتصف الخمسينيات إلى منتصف الثمانينيات، بعد فترة طويلة من إعدامه. في سنة 1953 عيّن قطب رئيس تحرير مجلة "الإخوان المسلمين"، ثم أصبح بعد ذلك مديراً لقسم الإعلام في تنظيم الإخوان، وسرعان ما أصبح عضواً في مجلس الإرشاد واللجنة التنفيذية، وهما أعلى هيئتين في التنظيم. سُجن قطب في البداية لمدة 3 أشهر في سنة 1954 بعد أن اتهم عبد الناصر الإخوان بمحاولة اغتياله. ونتيجة للتعذيب الشديد، تمّ نقله في أيار/ مايو 1955 إلى مستشفى السجن، ثم أطلق سراحه بسبب تدهور حالته الصحية، ليتم اعتقاله مرة أخرى في تموز/ يوليو 1955 وحكم عليه بالسجن 15 عاماً قضى معظمها في المستشفى. في أثناء وجوده في السجن شهد اضطهاد زملائه، وتأثر بشكل خاص بمذبحة سجن طرة سنة 1957 التي قُتل فيها ما لا يقل عن 10 من رفاقه وجُرح عدد أكبر عندما فتح حراس السجن النار عليهم في زنازينهم. ويُعتقد أن تلك كانت اللحظة التي بدأ فيها قطب بالتفكير في إنشاء كادر سري منضبط من الأتباع المخلصين. وعلى الرغم من أنه لم يدعُ صراحة إلى استخدام القوة ضدّ الدولة، إلا أن أتباعه قاموا منذ ذلك الحين بالاستدلال بفكره لتبرير استخدام العنف ضدّ السلطات التي تفرض قوانين أو أنماط سلوك غير إسلامية على المجتمعات الإسلامية. بعد نداء للحصول على الرأفة من قبل الرئيس العراقي عارف، أطلق سراح قطب من السجن سنة 1964 ليتم اعتقاله مرة أخرى في آب/ أغسطس 1965 ووجهت إليه تهمة الإرهاب والفتنة. وكانت ردة فعله على اعتقال وتعذيب وإعدام الناشطين الإسلاميين البارزين في مصر تكفير كل ما هو غير إسلامي، فعدّ الديموقراطية وكل ما تنطوي عليه غريبة وغير إسلامية، وأصبح الآخر هو العدو. واستند هذا الرفض إلى تصنيف المجتمعات الحديثة، بما فيها المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة، إلى إسلام وجاهلية، كما أكد سيد قطب في كتابه معالم في الطريق، وهو الكتاب الذي أُعدم بسببه سنة 1966.

[36] مقابلة أجراها الكاتب مع موسى أبو مرزوق، دمشق، 2004/7/17. عند إطلاق سراحه من السجن، استأنف عبد الرحمن بارود دراسته، وعندما حصل على الدكتوراه غادر مصر واستقر في المملكة العربية السعودية.

[37] ولد المقادمة في مخيم جباليا بقطاع غزة سنة 1952 واغتالته قوات الاحتلال الإسرائيلي في 2003/3/8. أما شحادة فولد في بيت حانون بقطاع غزة في 1953/2/3 واغتالته قوات الاحتلال الإسرائيلي في 2002/7/23.

[38] مقابلة أجراها الكاتب مع موسى أبو مرزوق، دمشق، 2004/7/17.
عندما أجرى الكاتب مقابلة مع بشير نافع في أيلول/ سبتمبر 2003، استمر في الإصرار على أنه طُرد من الحركة منذ سنة 1974. ويبدو أنه في الواقع قد غادر ببساطة تعاطفاً مع عودة الذي كان قائداً طلابياً في الإخوان عندما أعطى نافع البيعة للجماعة التي كان يكُنّ لها احتراماً كبيراً. لكن لم يستطع نافع أن يقبل أسباب الإخوان، التي يزعم أنها أخطأت في إنهاء عضوية عودة.

[39] مقابلة أجراها الكاتب مع بشير نافع، لندن، 2003/9/15. الظاهر أن توفيق الطيب لم يكمل دراسته، بل عاد إلى لبنان في منتصف السبعينيات وأنشأ دار نشر سمّاها "الدار العلمية". وارتبط اسمه بالمجلة الفكرية الإسلامية المرموقة "المسلم المعاصر". وقد صدر العدد الأول من هذه المجلة، والذي سمي بالطبعة "المقدمة"، في تشرين الثاني/ نوفمبر 1974، وتضمّن ورقة أخرى للطيب بعنوان "الخصائص الثابتة اللازمة والخصائص المكتسبة للحركة الإسلامية"؛ فيما ظهر الإصدار الثاني المرقم بالإصدارين 1 و 2 مجتمعين في نيسان/ أبريل 1975.

[40] توفيق الطيب، "الحل الإسلامي ما بعد النكبتين،" 1968، انظر:
http://www.qudsway.com/Links/Islamyiat/6/Html_Islamyiat6/6hisl1.htm

[41] المرجع نفسه.

[42] الخلافة هو اسم النظام السياسي الذي ظهر مباشرة بعد وفاة الرسول محمد ﷺ سنة 632م واستمر حتى سنة 1924م، عندما انتهت الدولة العثمانية. تضمّنت أسس الخلافة في عصرها الذهبي الذي لم يدم إلا فترة وجيزة، مبدأ أن السلطة للأمة، وأن اتخاذ القرار يجب أن يكون عن طريق الشورى، وأن الحكام المحكومين متساوون أمام القانون، ويجب ألا يتعارض وضع القوانين مع أساسيات الشريعة، وهي مجموعة المبادئ التوجيهية المتجسدة في القرآن. وفي حين بقي للشريعة احترامها في معظم فترات التاريخ، فقد تمّ التخلي عن الشورى في وقت مبكر جداً من تاريخ الإسلام.

[43] Azzam Tamimi, *Rachid Ghannouchi: A Democrat Within Islamism* (New York: Oxford University Press, 2001), p. 18.

[44] لمعلومات مفصلة عن مفهوميْ "الجهاد والاستشهاد"، انظر الفصل الثامن، ص 223–242.

[45] مقابلة أجراها الكاتب مع عماد العلمي، دمشق، 2003/8/13.

[46] وفقاً لخليل الوزير (أبو جهاد)، أحد مؤسسي حركة فتح، فإن الاجتماع التأسيسي انعقد في الكويت في النصف الثاني من سنة 1957، وحضر الاجتماع خمسة فلسطينيين قدِموا من مواقع مختلفة في العالم العربي، ومثّلوا أربع مجموعات رئيسية من مؤسسي فتح، هي: مجموعة الكويت التي ضمّت ياسر عرفات وخليل الوزير وصلاح خلف، ومجموعة قطر التي ضمّت محمد يوسف النجار وكمال عدوان ومحمود عباس ورفيق النتشة، والمجموعة السعودية التي ضمّت سعيد المزين ومعاذ عابد وأحمد وافي، ومجموعة غزة التي ضمّت فتحي البلعاوي وأسعد الصفطاوي وسليم الزعنون وعوني القيشاوي.

[47] مقابلة أجراها الكاتب مع خالد مشعل، دمشق، 2003/8/13.

[48] المرجع نفسه.

[49] تأسس حزب التحرير الإسلامي في القدس سنة 1953 على يد تقي الدين النبهاني (1909–1977). يعلن الحزب أنه حزب سياسي، ويعدّ الإسلام أيديولوجيته وإحياء الأمة الإسلامية هدفه. ويسعى حزب التحرير إلى تحقيق هذا الهدف من خلال إنشاء دولة إسلامية واحدة، تقوم على أنقاض الأنظمة القائمة. والحزب محظور حالياً في معظم الدول العربية، لكنه انتشر مؤخراً بين الشباب المسلم في العديد من الدول الغربية.

[50] مقابلة أجراها الكاتب مع خالد مشعل، دمشق، 2003/8/13.

Hamas: Unwritten Chapters

By:
Dr. Azzam Tamimi

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب حركة حماس، من خلال أدبيات الحركة وتصريحات قادتها ورواياتهم هم أنفسهم لمراحل نشأتها وتطورها. كما يُركّز على العوامل والأحداث التي أدّت إلى صعود الحركة، والانتشار الواسع بسرعة، واستئثارها بثقة أعداد متزايدة من الفلسطينيين في الداخل وفي الشتات ودعمهم، وفوزها باحترام الغالبية العظمى من العرب والمسلمين حول العالم وتعاطفهم.

ويُقدّم الكتاب رؤية حركة حماس لنفسها وللعالم من حولها، ويحلل فهمها وموقفها من الصراع في فلسطين ووسائل حلّه. كما يسلّط الضوء على كيفية مواجهة حماس للتحديات، وكيفية تعاملها مع الأصدقاء والخصوم، وقدرتها على التعافي من النكسات. ويتطرق إلى العوامل التي تحوَّلت بسببها حركة حماس في نظر الكثير من الفلسطينيين إلى بديل مُقنع لقيادة الشعب الفلسطيني.

وقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب باللغة الإنجليزية في سنة 2007. ويسر مركز الزيتونة تقديمه للقراء الكرام باللغة العربية للمرة الأولى في هذه الطبعة.

ISBN 978-614-494-058-7

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات
Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations
ص.ب.: 5034-14 بيروت – لبنان
تلفون: 644 803 21 961+ | تلفاكس: 643 803 21 961+
info@alzaytouna.net | www.alzaytouna.net